أقاصيص من الحياة



ادمون صبري

ادمون صبري

اقاصيص من الحياة

مطبعة أسعد ـ بغداد ـ هاتف : ٦٢١٧٩
١٩٧٠

أرى الحـــق لم يغش البـــلاد
وانما مشى ضاربا في الارض تلفظه الطرق
فيصبح في أرض ويمســـي بغيرهـا
وحيدا فلا يؤويه غرب ولا شـــرق
ومن عجب أن الـورى يدعـــونه
وهم من قديم الدهـر اعداؤه الزرق
أعـدوا له في البـر والبحـــر قوة
اذا ظهرت ينســـد من دونها الافق
وطـاروا بطــائراتهم يمطـــرونه
قذائف من نار كما أمطــــر الودق
يقولون ان الحـــق في الخـــلق قوة
تـذل لها الاعنـاق قهـرا وتنـدق
فمـا باله يمســـي ويصبح شـاكيا
ولا يتحاشى عن ظلامتـه الخـــلق
الرصـافي

لقد كنت في درب ببغـداد ماشـــيا
وبغـداد فيهـا للمشـــاة دروب
فصادفت شيخا قد حنى الدهـر ظهره
له في الصراط المســـتقيم دبيب
عليه ثيـــاب رثة غـــير أنهـا
نظـاف لم تدنس لهـن جيـــوب
يســـير الهوينا والجمـاهير خلفـه
يســـبونه والشـيخ ليس يجيب
تســـاءلت من هــذا فقال مجـاوب
هو الحـــق جاء اليوم فهـو غـريب
فجئت اليه ناصـــرا ومـــوآزرا
ودمعي لاشـــفاقي عليه صبيـب
وقلت لـه أنا غريبـــان ههنـا
وكل غـريب للغـريب نســـيب
الزهـاوي

مايكل

كان يتطلع الى تلفزيون الحانة بحدة وانتباه ، كما لو أن المذيع على وشك أن يقول شيئا بالغ الخطورة ، كأن يعلن الحرب أو يقرر مصير البشرية أو يحدد من سيموت من أفراد أسرته ومن سيبقى على قيد الحياة ٠

كان هذا الرجل قد اتخذ مجلسا دانيا من التلفزيون وسمر عليه عينين قلقتين ، وكان يبتسم احيانا من حيث لايدرى ابتسامة محسورة متعبة فيها معنى الانتصار والتشفي فعل المقامر في جولة من جولات الحظ ٠

جلست عن كثب منه ورحت أدرس أمره ٠ ترى هل هو في تمام عقله أم انه ملتاث العقل ، وايا ماكان الامر فثمة حالة تهمني دراستها ٠ لم أقحم نفسي في شؤونه خشية أن ينصرف عني كما لم أتظاهر بعدم المبالاة المطلقة فيعاملني بالمثل ٠ وتلك خطة بارعة تعتمد على الكر والفر ٠

ابتسمت له ابتسامة مشجعة وقلت ـ :

ـ برنامج لذيذ أليس كذلك ؟

انتبه من غفلته كما لو وخزته بابرة فرمقني بنظرة مستطلعة تقيس لباقتي وهدفي ٠ ويبدو أنه اطمأن الي ، اذ تراخت عضلات وجهه ثم تغضنت فى قوة عند جانبي فمه والتمعت عيناه بابتسامة ودية فأبتسمت له أكثر من ذي قبل وقلت في نبرة مرحة كمن يطمح في التسرية والترفيه :

ـ هل ثمة برنامج مشوق على التلفزيون ؟

أجاب باقتضاب مادا يده الى المقعد الخالي :

ـ هو كذلك ، تفضل واجلس الى جانبي ٠٠

حملت كأسي ودنوت الى حواره ٠ قال دون أن يلتفت نحوي:

ـ انني أنتظر ولدي على الشاشة ٠ أصغر عازف كمان ٠ ما أشد فرحتي به ٠

وما هي الا ثوان حتى سمعت المذيع يقول :

« ستعزف لكم الفرقة الموسيقية ٠٠ مقطوعة ٠٠ » ولم يذكر

اسم احد .. ظهر على الشاشة خمسة عازفين بينهم انسان صغير يبلغ العاشرة محتضنا كمانا .

صفق الرجل بقوة وصاح بانفعال :

ـ ابني مايكل .. ابني مايكل .. هذا العازف الصغير يالهي ماأجمله على الشاشة وما أحلى وجهه ..

نهض من مكانه في خفة القط وهجم على التلفزيون مقبلا اياه في الموضع الذي تبدو فيه صورة ابنه مايكل .. ثم تراجع قليـــلا ومد ذراعيه على طول انبساطهما وهتف « عزيزي مايكل ، بيض وجه أبيك وسود وجه أمك » كان هتافـــه اشبه بالهتاف الذي يتعالى فى سباق الخيل أو في مباراة كرة القـــدم .

كانت الحانة مزدحمة وضاجة بمختلف الاصوات . وكان كل شارب منهمك فى اجترار شؤونه اليومية .. ان ما أبداه الرجل من الانفعالات والخروج عن المألوف كان من طبيعة المكان ولذا لم يثـر الا قليلا من الانتباه العـــابر . استمر الرجل يهتف « مايكل بيض وجه أبيك وسود وجه أمك » فعل ذلك عدة مرات .

بدأت الفـرقة تعزف وبدأ ساعد مايكل النحيف القصير يروح ويجيء على أوتار الكمان في رشاقة وحذر مخرجا نغما مرحا متناسقا مع الجوقة . تأملت في وجه الصبي المرتسم على الشاشة . كان وجها بريئا شفافا . وجه انسان يحلم أن يكون لامعا في مستقبل ايامه وانه يضع اللبنات الاولى لعالمه المقبل .

وجه كهذا ليس كثير الوقوع عليه . وكان عزفه جيدا وحركاته متزنة رشيقة . تمتم الرجل :

ـ «مايكل عبقري موهوب يملك كل صفات النبوغ والابداع . قبل أن يبلغ العاشرة عزف قطعة حبي المشهورة » ثم سألني بثقـــة ان كنت قد ســـمعت قطعة حبى . فأجبته انني قد ســمعتها . ثم شرع يعزف قطعة حبى بين شفتيه مخرجا من جوفه المخمور لحنـــا قاسيا جافا كأنه العويل . أردف الرجل :

ـ عزف مايكل قطعـــة حبى في العاشرة فجلب بذلك انتبـــاه كبار الموسيقيين ، فأدخلته المعهد فكان اعجوبة اساتذته .

قلت للرجل كل ماتقوله صدق وحقيقة وانني اهنئك على ولد

نابه وعبقري مثل مايكل العزيز ، ولكن اسمح لي أن اســأل مامعنى بيض وجه أبيك وسود وجه أمك ؟

حدق مليا فى وجهى غير مدرك فيم هذا السؤال المحير • قال في بطء :

ـ انك لاتكتفي بالظاهر من الامور بل تريد الغوص الى القعر ، وهذه خصلة محمودة لاتخلو من براعة وذكاء •

قلت ـ هتافك جلب انتباهي •• وان وراءه لسر ••

قال ـ تلك قصة طويلة • مايكل هــذا من غير أم ، هجــرته وهجرتني أنا كذلك عندما كان عمـره سنتين ، فهو لايعرفها ولكنـه يكرهها وقد علمته كيف يكرهها • وهذا غريب أن يكره الانســان انسانا وهو لايعرفه ولم يره •

يقولون انها تعيش في هذه المدينة فى مكان مجهول مع رجــل آخر ميسور الحال اغدق عليها النعمة والرفاه • في بيتها تلفزيون من غير ريب وانها قاعدة اللحظة تجاهه تتسلى وتلهو ولكن هــل تستطيع أن تتصور مدى حزنها عندما يظهر مايكل على الشاشــة• ان حزنها لينفذ بعيدا فى قلبها مثلما ينفذ السهم المدبب • لقد رأت اللحظة ابنها الذي تركته طفلا رضيعا ولحقت برجل غريب • انني أتصور ان هما في ثقل الجبل يرزح على صــدرها • لقد بكت من غير ريب ولم يسعفها البذخ والثراء ولا الطنافس والرياش بــل استحال كل ذلك الى قش وهباء والى أدوات تعذيب جديدة •

سألت الرجل : وما جدوى كل ذلك ؟

قال فى ثقة : انني أنتقم بطريقتي الخاصة وبأسلوبى البسيط، أعذبها ، أمـزق ســعادتها ، أحـرق قلبها ، أتلف نعيـم الحياة من عينيهــا •

سألته ـ : هل يعرف مايكل كل هذا أيضا ••

قال ـ هو أبرع مني فى الانتقام لقد اتفق مع مذيع صديق أن يذكر اسم مايكل للمستمعين ولسوف يذكر اسمه فى المــرة القادمة • ولسوف يقول المذيع « العــازف البارع مايكل جـــورج » أظن انها ستنتحر أو تهرع الى دار التلفزيون باكية مولولة وعنــد ذاك ســأرفسها •

تركت الرجل جانبا وعدت الى مكاني •

عندما يلتقي الاضـــداد

تحدث في الحانات كثير من الصداقات السريعة ، اذ تجيش نفس الانسان برغبة ملحة بالاختلاط ، وذلك للتنفيس عن كرب أو استئناس بوجه جديد أو مجرد استطلاع تثيره المشاعر الخامدة في ان الانسان هو الانسان رغم تعقيدات الحياة وطغيان الفردية وانشغال المرء بذاتيته وحدها ٠

في احدى الليالى جالست رجلا غريبا في زاوية من زوايا الحانة ، لم أعرفه من قبل ، الا أنه القى بنفسه علي كما ألقيت بنفسي عليه ، ولعل كلينا كان يضيق ذرعا بصمته الثقيل وتوحده الموحش ، وكان ان قص علي حكاية للاستدلال على مفارقات الحياة وسخفها أحيانا ٠٠ قال :

سكنت ذات مرة في بيت من البيوت ، بيت عادي لا هو بالكبير ولا هو بالصغير ولا هو بالزري ولا هو بالفخم ٠ كانت غرفتي تقع عند الفسحة التي تنعطف فيها السلم متجهة الى السطح ، فليست هي في الطابق الارضي وليست هي على السطح ، بيد انها تتمتع بموقع استراتيجي فريد ٠ فهي القناة التي توصل الى السطح وهي البرج الذي يشرف على الغرفتين الكبيرتين من جهتيهما الخلفية ٠

تسكن هاتين الغرفتين عائلتان احسب ان ليس في العالم أي عائلتين اكثر منهما تغايرا واختلافا في حياتيهما ٠٠ احدى العائلتين قد أنجبت سبعة من البنين والبنات تتراوح اعمارهم بين الرابعة عشر والسنتين ، والوالد حارس ليلي في مخزن لبيع الاخشاب يتقاضى عشرين دينارا في الشهر ، يمضي ليله في الحراسة ويمضي نهاره مضطجعا على سريره الكبير أو بالاحرى سرير زوجته اثناء الليل ٠

كانت بلية هذه العائلة هي كثرة أولادها ، فليس ثمة أمكنة مريحة للنوم ولا مواعد منظمة للطعام ولا هجود وهجوع ٠ يندر ان يخلو يوم من غسيل بسبب كثرة مايتسخ من جلابيب وستر وخرق، وكانت قدور الطعام كبيرة منبعجة اشبه بقدور المطاعم الرخيصة، تملأ هذه القدور في الصباح وتفرغ في المساء ، والعيون الصغيرة ماتزال تحملق في نهم تتوقع بقايا وفضلات في الصحون ٠ والام

امرأة متينة البناء جلدة على المصاعب لايعوزها عوز الا ما اشـــتبكت في نزال من أن تستعمل قبضتيها ولسانها الذرب الســليط ٠

أما العائلة الاخرى فلها طفلة وحيدة تنعم بربيعها الســـابع ٠ طفلة مدللة نظيفة ، تذهب الى مدرستها الاهلية بسيارة كبيرة تلتقطها من عتبة البيت مزودة بالفواكه والحلويات تستعين بها على الجوع ٠٠ كانت هذه الطفلة قليلة الاختلاط بأولاد العائلة الاخرى ترفعـــــا واستعلاء ٠ فهي مدللة نظيفة عفيفة في طعامها وشرابها تدرس فـــي مدرسة اهلية ووالدها موظف حسن البزة أنيق الثياب ينام ليلـــه ويعمل في نهاره كما يفعل الاسوياء من الناس وامها هادئة مهـــذبة لاتحدث صخبا ولا ضجيجا ٠

لم يكن ربا العائلتين على صـــداقة وود كما لم يكونا خصـــمين متنافرين ٠ كانا يتبادلان التحيات المقتضبة ويتعايدان في الاعياد على نحو سريع وجاف دون أن يتصافحا ، انما يكتفيان بانحناءة خفيفـة ووضع الكف على الصـــدر ٠ كانا يشعران بضـــرورة اصطناع بعض الالفــة مع الجيران ولكن الى الحد الذي لايرقى الى الصـــداقة ، وكانا الى جانب ذلك يختلفان طولا وعرضا وملامح وقسمات ، فالحـــارس طويل نحيف محدوب الظهر والموظف ربعة في الطول يظلع قليلا في مشيه قد غزا رأسه الصلع والشيب معا بينما الحارس كثيف الشعر وكأنما يضع على رأسه فروة داكنة الســـواد ٠

عشت مع هاتين العائلتين زهاء ستة أشهر ، كانت‌الحياة تمضي على وتيرة واحدة ، ضجيج وضوضاء وغسل ملابس والتهـــام كميات كبيرة من الاطعمة ، وصفائح ملأى بالزبل الى جانب هـــدوء وتعفف ونظافة ، كانت زوجة الحارس مجهدة على الدوام لاتخلد الى الراحـــة الا ساعات قليلة من الليل بينما تنهمك زوجة الموظف في تطريز اغطية للفراش أو نقش رسوم في قماش سميك وكأنها فنانة محترمة تعمـــل في مشـــغلها ٠

كانت علاقتي طيبة بكلا الرجلين ٠ كلاهما يحييني بود ولطف واعمد أن أخوض مع احدهما حديثا طويلا عندما يكون الأخر غائبـــا فاستطعت أن أوحي الى كليهما انني اقرب مودة اليه من جاره ، ومن هذه المراوغة البريئة توصلت الى معرفة بعض اسرارهما ٠ عـــلمت

عن طريق الاستقراء ان زوجة الحارس الليلي تكره انجاب الاطفال بكل طاقتها وتتناول من أجل ذلك حبوبا مانعة للحمل وقد رأيت علبة فارغة من هذه الحبوب ملقاة في صفيحة الاوساخ .. وعلمت كذلك ان زوجة الموظف مرهقة بهم ثقيل هو خشيتها من ان يصيب ابنتها مكروه فتفقدها وتضحي من غير ابناء اشبه بالزوجة العاقر لذا فهي راغبة أشد الرغبة في انجاب أبناء آخرين وقد استبان لي ذلك عندما تأخرت السيارة التي تقل ابنتها من المدرسة الى البيت زهاء نصف ساعة . رابطت الام عند الباب تضرب كفا بكف وقد خرجت عن طورها الهادىء الرزين واخذت تبكي وتندب حظها قائلة « ما اظلم حظي اذ أفقد ابنتي الوحيدة » تطوعت لمساعدتها فاتصلت بادارة المدرسة تلفونيا فأعلموني ان السيارة قد انطلقت من المدرسة منذ ساعة وهي في طريقها الى المنزل ، ولكن السيارة لم تصل فتضاعفت هواجس المرأة الا أني طمأنتها ما وسعنى من كلم طيب قائلا « قد تكون السيارة معطوبة وهذا أمر جائز ولا داعي للقلق » . وجاء زوجها فأبدى رباطة جأش محمودة ودعا زوجته ان تهدأ وتطرد مخاوفها وفي لحظات الانفعالات قال شاكيا : « انها تعيش في خوف دائم من ان تفقد ابنتها ، وما عساي افعل ، كلما لاحت تباشير الخير جاءت النكسة في أعقابها فأطاحت بكل أمل مرتقب » .. كان الرجل يعاني من عقدة زوجته .

اعولت المرأة « انني اخاف . اخاف . ليست لدينا غير ابنة واحدة وقد تموت واموت انا بعدها » .

أردف الزوج « هذه مصيبتي ... تخاف أن تموت ابنتها ولا تخاف ان أموت انا او تموت هي » وسرعان ماتلبد الجو بسحابة من الهم جعلتنا جميعا نجلس مطرقين ، وبعد دقائق قدمت السيارة وهبطت منها ابنتهما ، وهي في احسن حالات الانشراح ، اذ قد استمتعت بنزهة اضافية الى كراج لتصليح السيارات فرأت أماكن غير مألوفة لديها واطلعت لاول مرة على ماكنة السيارة بعد ان ازيح عنها الغطاء وهي كتلة قاسية معقدة من الحديد مطلية بالدهان لايزيد حجمها عن حجم منضدة صغيرة تجلس عليها المعلمة ومع ذلك فهي تسحب جسما هائلا ثقيلا .

نهدت الام الى طفلتها وامطرتها بقبل حارة عنيفة ·· قلت لنفسي « ههنا شيء عجيب ، ام تتناول الحبوب من اجل الا تحمل وام اخرى يقتلها الاسى لانها لم تحمل » ·

بعد شهرين شاءت الصدف أن تحمل المرأتان في وقت واحد · زوجة الحارس تندب حظها وتكاد تتمزق من الغيظ · لقد اتت من الافعال مايضحك · كانت تلعب كالصبية وتحدث احيانا من الاهتزازات والقفزات مايعجز عن اتيانها صبي من صبيان الازقة · وكانت تحمل كميات من الاثقال وتغسل الملابس كل أيام الاسبوع وتدق بالمهراس حبات الحنطة ، وبين آونة واخرى تختلس النظر الى بطنها وتضغط عليه بأصابعها ··

أما زوجة الموظف فحالما شعرت انها حامل قصدت احد الاطباء المشهورين وهي فرحة اشد الفرح · اجرى عليها الفحص واكد لها على انها حامل وأوصاها أن تخلد الى الراحة فلا تكنس ولا تطبخ ولا تجهد نفسها ولا تنفعل ولا تتناول التوابل ، فامتثلت للامر مثل جندي · كان زوجها المسكين يتناول غذاءه في المطاعم العامة ويكنس الغرفة بمكنسة ذات مقبض طويل ليتفادى الانحناء وليحول دون تسرب الغبار الى رأسه · يفعل ذلك في تكتم شديد خشية ان يلمحه احد من أبناء العائلة الاخرى فينثلم احترامه ·· ويبدو انه كان مسرورا بهذه التضحيات الصغيرة اذ يرى استبشار زوجته وحسن مزاجها رغم أنها كانت تتأوه كلما تقلبت في فراشها ، ولم تشأ الام أن تكتم فرحتها عن ابنتها الصغيرة ، فقد همست في اذنها غير مرة « ستكونين اختا لاخ » ففهمت الطفلة معنى تصرفات أمها فكانت تجيب في اخلاص « سألاعبه واسقيه الحليب ولا اجد نفسي وحيدة في البيت » ·

أما زوجة الحارس فقد اضطرت آخر الامر وبعد ان أعيتها محاولاتها اليائسة أن تقصد طبيبة من الطبيبات ، دفعت لها دينارا عزيزا وتوسلت اليها أن تنجيها من هذا البلاء العظيم ، فمستها الطبيبة في بطنها وخاصرتها وخفقت بأصابعها هنا وهناك ثم انتهت الى حكم قضائي لا مرد له ذلك انها حامل والجنين أقوى من شجرة التوت وليس ثمة مهرب وان أية محاولة للاجهاض معناها الانتحار·

عادت الى البيت وهي شحنة من الغيظ والحنق ·· استعادت

في ذهنها متاعب الطفل المنتظر ، صراخه ونهمه في امتصاص ثدييها المتهدلين وأوساخه وخرقه المبتلة · وجاء زوجها فاعلمته بالخبـــر المحزن فحمل حملة منكرة على الطبيبات ووصفهن بالشـــريرات والتاجرات والساحرات وهو يتميز غيظا ··

وحدث ذات ليلة ما ليس بالحسبان · بعد ان تجاوزت الساعة الواحدة سمعت ضجة في غرفة الموظف وحركة غير اعتيادية تؤذن بوقوع مكروه فخرجت استطلع الخبر ، تناهى الى اذني أنين الزوجة الخافت ورأيت الزوج يروح ويجيء في حيرة وارتباك شأن من أضاع صوابه وما ان وقعت أنظاره علي حتى خف نحوي مستنجدا «حالتها سـيئة انها على وشك أن تجهض ، ياالهي لست أدري ماذا أفعــل » تلفت حولي فلم أر بدا من طلب المعونة من زوجة الحارس · جئـت عند بابها وطرقته بلطف عدة مرات وبعد انتظار طويل خرجت الينا بوجه متجهم نعســـان · قلت لها « بامكانك ان تعيني جارتك في ســـاعة محنتها » ·

سألت في ضيق « ماذا ألم بها ؟ »

قلت « الاجهاض ·· انها على وشك أن تجهض » ·

أجابت في لا مبالاة « ماالذي استطيع فعله ، لتأخذ بطنـــي وتعطيني بطنها » ولم تبادر الى ابداء أية معونة ·

وبعد ايام انتقلت عائلة الموظف الى بيت بعيــد ··

الحديقة العامة

كنا في ذلك العهد طلبة في الصف السادس ، نتكدس كل صباح في غرفة الصف المعتمة خمسة عشر صبيا كفلول كتيبة مهزومة ، مصوبين أنظارنا نحو اللوحة السوداء الملتصقة بجدار من الطين ، ناقلين عنها مايسطره الطباشير الابيض من كلمات ورسوم ..

لنا هيئة من المعلمين في غاية العجب ، كأن الدولة أرادت أن تجعل منهم متحفا للمخلوقات النادرة . فمعلم الرياضة يضع عوينات ويقوم بحلق رؤوس زملائه المعلمين في غرفة الادارة ، لما هم بتشكيل فرقة لكرة السلة اصطدم بعقبة كبيرة ، اذ كانت الكرة تتجه الى عويناته بدلا من أن تطير نحو الهدف ، فحل الفرقة واكتفى بألعابه السويدية التي كان يقوم بها على نحو مضحك ، ومعلم الجغرافية شاب جميل مهندم كان يدرس التمثيل في بغداد ، وفيما هو على أهبة التخرج نقلته الوزارة الى بلدتنا فأضاعت عليه اعظم فرصة ، الا أنه حرص على استعادة أدواره الممتازة ، ولاجل هذا صار يمثل أمامنا ، فحينما نحييه في الصف ينحني انحناءة طويلة وينشر يديه ويتلطف بابتسامة ، كما يفعل الموسيقيون بعد انتهاء عزفهم وعندما يتحدث عن روما وباريس وفيينا يتحسر وينتابه الانفعال ويضرب الارض بعقبه في هياج حتى تكاد عيناه تدمعان فيصيح في يأس : « انكم لاتفهمونني أيها الصغار أنا فنان أملك مواهب ... آه لاكاد اختنق في هذا المكان ... العالم فسيح وعظيم ونحن نعيش في عزلة ما أفظع هذا » ..

ولنا معلم للرسم معتل الصحة قصير دائم السعال ، كان يجلب صورا ومنحوتات من بغداد ويزين بها غرفته ، واذا ما اقبل مفتش يدعى انها جميعا من صنعنا ، ونحن براء منها لانقدر على رسم خطين متوازيين .

ولنا مدير شاذ الطبع يلوح في الصف متداعيا تعبا كأنه قد قضى الساعات العشرين الماضية مضطجعا في تابوت فأستيقظ مبهوتا فزعا وهرول الى المدرسة مشعث الشعر زائغ البصر ، وكان يدخن بورق اللف فى اسراف ، وفي الصف يحملق في وجوهنا بشدة ويتابع

حكايته في موضـــوع الواجبات : « الدولة ســـــلطة عليا تنشيء المستشفيات والمستوصفـات وتقيـم المدارس وتعين المعلمين وتبلط الطرق وتسهل مراسلات الناس وتحفظ الامن وتحمي حدود البلاد ، ثم يسهب في واجبات البلدية ، فيتحدث عن مشاريع الماء والكهرباء وينتهي الى الحدائق العامة التى تنشــؤها البلـــدية لراحة الناس وتلطيف جوهم ·

هذا هو الموضوع الذي يتفضل بالقائه علينا ، والذي قــد حفظه عن ظهر قلب خلال عشرين سنة في الخدمة · يتعثر غالبـــا في خضم كلماته الكثيرة المنمقة فيتوقف كما لو اصطدم بجـدار ثـــم يندفع كرة اخرى في طلاقة مشوشة ويتعثر ويتمخط بصخبويسعل ويحـدق طويلا في السقف ويطل من النافذة ويسأل أحدنا : ان كان والده قد فرغ من الحصاد ، ولا يضيره ان يناقش في مسألةالحصاد ان وجد ذلك يســره ·

كان المدير هذا يدعى ـ عبدالمجيد ـ رجل عازب ذرف بـــه العمر الا انه مبتلي بداء ، وداؤه هذا هو حنينه البالغ لاســتطلاع وجوه السيدات الجميلات ، وقد اودى به هـذا الحنـــين الذى كان يتكشف في صور شتى الى مآزق ومصادمات جارحة · كان يســـأل الطـلاب عن أهل بيتهـم من النســاء او يطيـــل النظر الى صدور المرضعات في اشتهاء فيثير بذلك الاقاويل وينشــر الهمس ، وطـالما وجد يذرع أزقة الناحية ملقيا نظرات مشبوهة داعرة الى مـــاوراء الابواب ، الا أنه متكتم بارع فلم تند عن شفتيه أية كلمة نابيـــة ولم يشتم أحدا ·

أما نحن الذين شببنا عن الطـوق منذ عام على اكثر تعـــديل فقد غدونا صحابين مشاكسين لا تكاد الناحية تحتوينا بطاقاتنا الهائلة المنفتحة حديثا · في الامسيات نزجي فراغنا في حديقة الناحية ، فهى على فقرها ويبوســـتها تمدنا بالعون لقتل الوقت الذي يئيد علينـا بثقله المرهـق ·

كانت حديقة عاطلة مسيجة باسلاك مقطوعة ، تتوسطها بركة من السمنت سيئة التكوين ، يتدفق عليها الماء من نافورة رصاصية مبعوجة ، يقوم على حراســـتها وريها رجل من البلدة يودي الى جانب

ذلك خدمات في بيت مدير الناحية · نرتاد الحديقة في الامسيات حيث نشهد من هناك غروب الشمس وهي تتوارى في كآبة وراء التلال التي لم يصل اليها أحد منا ، وفي الصباح من أيام العطل كنا نخف الى حديقتنا مسرعين فنقرأ وننشد الاناشيد ونقوم بتمرينات رياضية غير عابئين بوساختها وبالاهمال الطويل الذي تعرضت له من جراء الماء لقليل الذي تصيبه ·

وحدث أن نقل مدير ناحيتنا بعد ان اقام بيننا زهاء خمس سنوات · كان أشيب عريض الصدر مديد القامة خدم في مطلع شبابه في الجيش وما زالت حركاته تتصف بالعسكرية · كثيرا ما كنا نصادفه يجوس البلدة خلال الليل مع اثنين من رجال الشرطة لتفقد الامن ، فقد كان يهون عليه أن يموت مئة انسان بالكوليرا من أن تسرق من أحد علبة ثقاب ·

الجديد كما سبقت الاشاعات مجيئه ، شاب حقوقي متنور وكان كذلك · قدم في ظهر يوم قائظ متوقد بحرارة الشمس ، تقله سيارة تاكسي فخمة مع حقائبه الكبيرة فتقدم معلمونا والموظفون الآخرون للسلام عليه وتهنئته ، وشرع هو دون تضييع وقت كثير يتفقد شؤون البلدة باهتمام بالغ كوريث يعيد تنظيم مزرعة أبيه ، وقد نالت الحديقة حظوة بالغة من عنايته فغرس فيها الشجر واجرى عليها الماء واحاطها بالكالبتوس واللبلاب وجعل فيها عرائش مظللة بأوراق الكروم ، وسرعان ما انبثق في ارجائها الزهر الفواح من الارض الغبراء ناشرا أريجه العاطر من مئات الورود · وقعت هذه التحسينات أمام أنظارنا فشكرنا مدير الناحية على عنايته واهتمامه، كما أمنا بديباجة مدير مدرستنا واقرناه على علمه الغزير واطلاعه الواسع في أن الحدائق لنزهة الناس ومن شؤون الحكومة أن تنفق عليها المال لانعاشها وتجميلها ·

وذات يوم فوجئنا بنبأ عظيم ، اذ عاد مدير الناحية بعد غيبة قصيرة ومعه زوجة ، فطار الخبر الى كل مكان بسرعة البرق كما يحدث عادة في المدن الصغيرة ، ولاجل ملء الفراغ الذي يحسه الموظفون فقد جعلوا من هذا الخبر موضوعا للحدس والتخمين وزواية الحكايات ، حتى قدم أحدهم ذات يوم يذيع ان الزوجة على

غاية من الجمال بل هي فينوس بلحمها ودمها · عينـــان نجـلاوان وأنف اغريقي وقسمات خمرية · انها تحفة حقيقية من تحــــف العاصمة ، فانصرفت الاذهان في الحال الى الجسد الرشيق البض الغض الذي يلـوذ متخفيا بالعباءة الســـوداء · في الامسيات يتنزه الزوجان في الحديقة فيرجونا البستاني بلطف أن ننصرف ونخـلي المكان ، ويظل يراقبنا حتى يجدنا قد ابتعدنا كثيرا عن الســياج ، فنلمح الزوجة الجميلة تلج الحديقة في عظمة مع زوجها المــدير ، فيمكثان هناك بعض الوقت ثم ينصرفان · لم يعجب المدير وجودنا ، كانت عملية احراجنا وتلصصنا واستبقاء بعض مانحمل على مصاطب الحديقة قد أثار استفزازه ، فأختتم عمله العظيم بجعل الحديقـــة وقفا على زوجتـــه وحـــدها ، وحــرم علينــا ارتيادها · تجلس في الامسيات ساهمة متفكرة تحدق مليا في البركة وتتشمم الازهـــار مستعيدة في ذهنها مباهج العاصمة ومسراتها مغتاظة من فقر هـــذا المكان وتفاهته ، وأصبحنا نحن نحوم حول الحديقة ونرنو خلســة الى وجهها الجميل ونتهامس حتى ادركت غايتنا من هذا الحـــومان فأوعزت الى الشرطة فطردونا شر طردة وأنذرونا بالضرب المبــرح ان نحن عــدنا الى مثلها ، ومن يومها انقطعنا عن حديقتنا وصــرنا نضرب في آفاق اخــرى ·

نما في أنفســنا بتراخي الزمن حقــد دفين لمدير الناحية ، اذ حرمنا من حديقتنا وطردنا وحجب عنا رؤية زوجته الجميلة ، كما ان ديباجة مدير المدرسة غدت مملة غاية الملل وتبعث على النقمـــة بعد ان تكشف بطلانها وأسفر زيفها لاسـيما عندما يتحدث عـــن الحـــدائق العـــامة ·

صار المكــر يلعب برؤوســنا تغذيه حفيظة مهتاجة مســتثارة فتفتقت اذهاننا الصبيانية عن لعبة فريدة مدهشة ، اذ انبـــرى أحدنا للاستاذ وأمطره بوابل من الكلام القارص الثقيل ·

ــ أيها الاستاذ كيف تنفق الدولة على الشعب ولنا مثل هـــذا المستوصف الخرب الفارغ من الادوية والطبيب يزوره مرتـين في الاسبوع ، والجزار يذبح اغنامه في عرض الطريق ويلقي بأمعائهــا في مجاري المياه فيطن عليها الذباب وتحوم حولها الكلاب · ثم اين

هي الاشجار التي تلطف الجو وتمنع الغبار • الا ترانا نسبح في بحر من الغبار • وان لنا حديقة وهذا حسن ، ولكن لمن هذه الحديقة ؟ هي لامرأة واحدة لا غير ، تصايحنا جميعا في غير نظام « بلى بلى هي لها فقط ، هذا حرام » •

ساد الصمت بضع دقائق • كانت أنظارنا مغروزة في الوجه المقطب الذي كان يزداد امتقاعا دقيقة بعد اخرى ، ثم تنفس بعمق وتداعى للوراء فريسة الدهشة وإنشأ يقول بكلام هادىء « الدولة تفهم واجباتها خير منا وليس لصبيان مثلكم أن ينتقدوا ويعيبوا ولا أريد بعد اليوم مناقشات وانتقادات » فرد عليه صبي آخر « ولكن هذا الذي يقع بيننا ونلمسه » رد المدير في اقناع :

– بلى • ولكن افهموا اننا نتكلم عن المدن الكبرى ، وما بلدتنا هذه الا قرية متطورة قليلا قد لايعلم مكانها صبيان مثلكم في العاصمة •• في المدن كل شيء على مايرام ، المستشفيات مشحونة بالادوية والمرضى يعالجون ويشفون والاطباء في وفرة كافية والاغنام تذبح في مجازر فنية نظيفة والمدارس فخمة كالقلاع وبعضها نموذجية لابناء الوجهاء وحدهم ، والحدائق كبيرة مزودة بالمصاطب المريحة مع شتى أنواع الاشجار المجلوبة من أنحاء العالم والناس يرتادونها منعمين هانئين •

فصحنا من جديد ••

– اذن فيم جعلت حديقتنا لانسان واحد ؟

فحملق فينا مرة اخرى وسأل :

– ماذا قلتم • الحديقة لزوجة المدير وحدها ؟ هل شاهدتم هذا بعيونكم ؟

فصحنا جميعا « أجل أجل شاهدنا هذا وتستطيع أن تتأكد بنفسك » •

فرد علينا بانزعاج وتضايق « كفى تأدبوا ••• سأتحقق من ذلك » •

نجحت مؤامرتنا أروع نجاح ، فبعد أن كان مديرنا يتكرم بجسمه الكبير على مصطبة المقهى يثرثر في قدسية مهنة التعليم ويشيد بخدماته للانسانية ، صار يتريض كالرجال (العقلاء) حائما

حول الحديقة يسترق النظر من وراء السياج الى المرأة الفاتنة الي خلبت لبه ، فأثار حومانه هذا همسا وتقولات كثيرة وتنبأ الجميع ان حدثا بالغ الخطورة سيقع بين المديرين في وقت قريب، وصرنا نحن الثائرين الصغار نتطلع بشوق الى اليوم المنتظر الذي سيصطدم فيه المديران الكبيران ، وكان هذا اليوم يبدو دانيا . فرابطنا هناك مترقبين متلهفين ومن ورائنا موظفو الناحية يتحرقون شوقا لآخر الانباء .

وذات مساء كئيب ثقيل ينيخ على البلدة بأسرها ، بدت السماء كخيمة مصبغة بزرقة ناصلة حملتها الرياح الى علو شاهق ، والشمس مغرقة بالغبار تطفل وراء التلال البعيدة والناحية قد بدت في تمام شناعتها . فمدخل المستوصف مغلق ببوابة من الخارصين ككراج السيارات ومركز الشرطة عتيق بال، شامخ بعظمة لايستحقها كجنرال متقاعد يتوكأ على عصا ويحمل على صدره نياشينه ، ودائرة البريد ككوخ راهب زهد في كل زينة ، والمدرسة متكومة على جانب الطريق كضرب من مستودعات الجيش .

كنا نشهد هذا من فوق رابية في اعقاب الناحية ، قد اخفينا رؤوسنا الصغيرة بين الصخور نرقب بحذر مدير مدرستنا وهو يقوم بجولته المعتادة حول الحديقة . كان يدنو من السياج مشرئبا بعنقه متطلعا حواليه بوجل واحتراس .

أقبل مدير الناحية حاثا خطاه في تهرع مسددا نظرات صاعقة الى خصمه المسكين . ارعد في وجهه مزمجرا .

ـ أيها الحقير ماذا تفعل في هذا المكان .. ألا تخجل ؟ ألا يندى جبينك بالعرق .

ارتبك مديرنا اذ جمدته المباغتة في أرضه ، فهو مصعوق منذهل فريسة قنوط واستكانة عظيمتين . فتقدمنا على مهلنا . كان المدير يوالي هجمته العنيفة في استبسال وجرأة ، دنونا من الرجلين فرفع مديرنا باصريته نصف المغمضتين ونظر الينا جميعا . ان وميضا حيوانيا شرسا اشتعل في حدقتيه ، فانتفخ صدره بشهيق عميق وجلجلت حنجرته المخنوقة حتى أنه اوقع الرعب في نفوسنا .

ـ انها حديقة للناس وليست لزوجتك وحدها ايها السارق

المغتصب ... افتح أبوابها ودع الناس يدخلون ... ها انظر هؤلاء هم أصحابها الذين تزدريهم .

هذه الموجة المقدامة من الكلام الجارف قلبت مدير المديرية ظهرا لبطن ، فغلى الدم في أوردته واحتقن وجهه احتقانا قرمزيا ينذر بأوخم العواقب . فهدر صارخا :

ـ هذه زوجتي . أنت مشاغب لعين . أنت رئيس عصابة لا مدير مدرسة .. سأريك ما أنا قمين بفعله .

رد المدير في استهانة .

ـ افعل مايروق لك .

دلف مدير الناحية الى الحديقة وهو مرتجف من فرط انفعاله فأصطحب زوجته وخرج بها ، فألقت علينا جميعا نظرة شزراء مفعمة احتقارا حتى جعلتنا نطأطيء رؤوسنا ندما . أما مديرنا فما أسرع ما انفثأ غضبه وبردت حميا هياجه استفظع الجرأة التي اصطنعها بل انه دهش من نفسه ، فأطرق متماسكا في جهد متباعدا عنا في وهن .

دخلنا نحن الحديقة ينتابنا شعور مضن من الضيق والحرج، فتمثلت لنا الاشجار وكأنها أضرحة ، والمكان كله يلوح كمخلفات انسان ميت ، بل ان كل زهرة قد طبعت على أوراقها نظرتها تلك التي قذفتنا بها عند انصرافها ، فلم نطق الاصطبار ، فخرجنا منكفئين الى بيوتنا ، وانتشر الخبر الى كل نفس حية في الناحية في الدقائق الخمس التي اعقبت الحادث . ان الناس لينتظرون ببالغ الاهتمام الى ما ستسفر عنه هذه الملحمة الدراماتيكية ، فلا حديث بعد اليوم غير حديث المديرين ولا جديد بعد اليوم غير الجديد من أمرهما ، حتى المغترب يبعث برسائله مستوضحا مستفهما ، والقادم الجديد تجرفه الدوامة في الحال فاذا هو متلهف الى تتبع الاشاعات الاخذ بعضها برقاب البعض ، فمن قائل ان شخصية ذات وزن ثقيل تحمي مدير ناحيتنا وهو عضو بارز في البرلمان ووزير سابق. وان رجلا من قادة الجيش المتقاعدين يحمي مدير مدرستنا ولولاه لما جرؤ على فعلة كهذه . بل ان بعضهم لجأ الى الرهان واقامة المآدب على نفقة الخاسر . ان قلقا متوترا حادا قد استبد بالجميع ،ترى

الى أين ستبلغ القضية ··· واي من المديرين سينقل ويعاقب ويضطرب تيار حياته ، ولم تطأ قدم أحد ارض الحديقة خلال المدة، فانصرف عنها البستاني واعتكفت الزوجة في بيتها لاتبرحه ·

وأخيرا حل اليوم المنتظر مع كارثة اخرست الافواه ، اذ تلقى مديرنا كتابا من وزارته تبلغه ليس بالنقل الى ناحية اصغر من ناحيتنا وأضيع منها على الخارطة ، انما تبلغه بانهاء الخدمة ، فصعقنا نحن الكتيبة المهزومة لهول النبأ ، وفي يوم رحيله احتشدنا على بابه مع آبائنا ، وظهر هو على العتبة محوطا بمعلمي الرياضة والجغرافية والحساب الذي قدم منذ عشرة أيام · تطلّع الينا بنظرات هادئة حزينة فيما كنا نتولى نقل حقائبه الى مخزن السيارة ، كانت حقائب جلدية في غاية الاهتراء وقد حزمت بالحبال·

أفكار قاسية ثقيلة راودت خواطرنا في تلك اللحظات الاخيرة وبدت لنا عيناه وكأنهما تتساءلان أية حفرة احتفرتم للرجل المسكين · كان الغبار يزوبع مالئا الفضاء · وهذه سيارة المدير شرعت تدور مبعدة الى حيث لايدري أحد ·

والحديقة التي كانت مدار المنازعات اعيد اليها جمالها ورونقها ، فازدهرت واينعت كمثلها قبلا · ان الذي يرتادها اليوم ليس نحن ·· بل هي وحدها · كانت مشمخرة متباهية تجر وراءها ذيلا طويلا من الترفع والكبرياء قد أسفرت عن وجهها الجميل كله ·

وها قد كبرنا وانتشرنا في أرض الوطن وحالما يلتقي أفراد الكتيبة المهزومة يجري الحديث في الحال الى المدير عن المجيد وأيام الحديقة العامة ·

حكاية عن السلطان

في احدى زيارات السلطان الفاتح الى سوق النخاسة ، لقي غلاما جميلا أزرق العينين كستنائي الشعر أشم الانف رقيق الفم أبيض البشرة ، يتزاحم عليه المشترون • اقترب منه السلطان وتفحصه مليا ، فأذهله حسنه وبهاؤه وامتشاق قامته واللون الرائع المصطبغة به عيناه •

وعندما علم النخاسون أنه السلطان ، أحنوا هاماتهم الى الارض وتسارعوا في تقديم أدق المعلومات عن الغلام :

قالوا اسمه مهذار وانه من الكرج أو من البحار الشمالية الواسعة حيث لاتشرق الشمس على الناس الا ساعة أو بعض ساعة ، فتنجو أجسادهم من الملوحة والسمرة والتشقق وتستعيض عن ذلك بالبضاضة والغضاضة والليونة وتناسق العضل ووفرة الدم ، وكان الغلام تجسيدا لكل هذه المحاسن • واذا مانطق الغلام شاكرا السلطان على رعايته وتفضله اطلقت شفتاه نغما موسيقيا عذبا كأنه الترتيل أو خفقة مباغتة على أوتار الكمان •

حمله السلطان الى بيته وأوصى الملمين في الموسيقى والغناء أن يتعهدوه بالدرس والتهذيب ، وما هي الا سنة أو بعض سنة حتى نبغ الغلام بقريحة متوقدة وذكاء عريض في كل ضروب الغناء والضرب على الطنبور والعود ، كما اخذ ينظم المقطوعات الجميلة ويلحنها لنفسه ثم يغنيها في محافل الطرب ، فيخمر الجالسون بصوته قبل أن يخمروا بكؤوسهم •

كانت متعة بطانة السلطان وضيوفه أن يحضروا الولائم والافراح التي يغني فيها مهذار ، حتى أنهم ليفضلون سماعه على مصاحبة نسائهم واولادهم ، وذات يوم ماتت والدة السلطان ، فظن الناس أن صوت مهذار سيسكت في فترة الحداد الا أنه نظم مقطوعة غنائية حزينة في ساعات ووضع لها اللحن الباكي المتفجع ، وجلس فى العزاء ينشد اغنيته الاسيانة وكان الميته أمه او اعز من أمه ، فانطلق النشيج من الصدور وتتابعت الآهات والحسرات وتصببت العيون دموعا • لقد ابدع مهذار في مجلس العزاء كما ابدع

في مجلس الافراح وشهد له الجميع بقدرته وبراعته • وكلما أحرز السلطان انتصارا على خصومه وأعدائه وأذاقهم مر العذاب والـويل أنطلق مهذار ينشد المدائح في تعظيم السلطان جاعلا منه القـــائد والملهم والمدبر والحصيف والامين وجامع حكمة الاولين والآخـرين وجاعلا من خصوم السلطان المخربين والدساسين والمعتوهينوالناطحين صخرة تتحطم دونها القرون •

لكل سلطان اعداء ومتربصون وحاقدون ، ان امتصت السجون بعضهم وقطعت السيوف رؤوس البعض الآخر فالأخرون يهيئـون ويدبرون ويتآمرون حتى يجـــدوا لطموحهم منفذا ، وكان أن بوغت السلطان مثلما يباغت الاسد الهصور في غابته ومعقل حكمه ، فتلتف حول الحبال ويتهاوى رأســه عند قدميه ويجر من مكمنه العـزيز الى قفص الببغاء ، وهكذا كان ، اخذ السلطان قهرا الى قفص يحيط به سجانون قساة غلاظ مجردا من هيبته وصولته كما يجرد اللصوص• جرى خاطره الى مهذار المسكين الذي يقاسي مثله آلام المهانةوالاحتقار فتألم له مثلما تألم لنفسه • لقد حكم على السلطان المخلوع بالمـوت الرهيب • الحكم الذي يقضي بقطع الرأس عن الجســد • وقبل أن ينفذ فيه هذا الحكم ارتأى السلطان الجديد ان تولم وليمة فاخـرة يحضرها السلطان المخلوع في قفصه ليمتّع نفسه ولآخر مرة بمثـل هذه المسرات •• والحق أريد له الازعاج والاذلال لا الامتاع والتكريم

حمل الى القاعة في قفص مصنوع على هيئة اقفاص الببغـــاء وطرح في زاوية قصية وهو مشـــدوه مخبول أن يرى اثاثه وملكـه ومجوهراته في أيدي آسريه ومعذبيه •• وجد الكرسي الذي اعتـاد أن يقعد عليه مهذار خاليا ، فحسب ان مهذار ميت مقتول فتحســّر عليه • ولما التئم الشمل واجتمع مايمكن جمعه من الرجال ، خـرج مهذار من وراء الستائر ، عليه الجديد من المطارف والزينة ، فأمعـن السلطان فيه النظر وهو لايكاد يصدق • أمسك مهذار بالطنبور كما كان يمســـكه من قبل وغنى مثلما كان يغني من قبل بل خيّل للسلطان انه اكثر سـحرا وجودة ونشاطا وكأن لم يحدث ما حدث ولم يســقط سـلطان وتزول دولة واحكام • وكان مهـذار يتجه بأنظاره أحيانا الى السلطان المحبوس في القفص ويستهزيء به ويخرج

له لسانه دون أن تختلج في وجهه عضلة توحي بالخجل والاحراج وكأنما يراه لاول مرة وفي هذه الليلة بالذات • غنى بكل مافي طاقته من فن وابداع وتألق ، فتمايلت الرؤوس وانتشت الانفس وتهادت الخصور والتمعت الوجوه مرحا واستئناسا •

وقبل أن ينبلج الفجر ، حضر الجلاد الرهيب ومعه السيف القاطع لينفذ حكم السلطان الجديد بالسلطان المخلوع •• جاء رجل الى المخلوع وسأله ان كان يرغب في قول شيء • قال « أود ان ارى مهذارا » فجاء مهذار ووقف ازاء السلطان من غير أسف ولا ندم ولا خجل •

قال له السلطان « ما الذي جعلك تخونني ؟ »

أجاب مهذار « لانك خنتني » •

فدهش السلطان وقال « كيف يمكن ان أخونك وقد رعيتك واغدقت عليك النعم والخيرات وجعلتك شيئا كبيرا حيث لم تكن من قبل شيء » •

أجاب مهذار في ثقة « انك افسدتني وقتلت ضميري وخنقت أحاسيسى الانسانية • جعلت منى بوقا وطبلا وصناجة • جعلت مني لسانا عريضا لامجدك وارفعك واغطى عيوبك ومخازيك • ولقد فعلت مافعلت وأنا أكبح شعوري بالاحتقار تجاهك » •

فابتأس السلطان المخلوع لهذه الصراحة المؤلمة وسأل مهذار « ومن يدريك ان السلطان الجديد خير مني ؟ » •

أجاب مهذار « انه ليس خيرا منك بل مثلك • ولو كان خيرا منك لقتل خداعا مراوغا مثلي • ولكنه لم يفعل لانه يريد طبلا وبوقا وصناجة وليس ثمة من هو خير مني » •

سأل السلطان أخيرا « متى تموت مثل ميتتي ؟ » •

أجاب مهذار « سأموت مثلك عندما يأتي سلطان صادق عادل• وآنذاك لن احس لحياتي أية قيمة بل أكون مسرورا لانني اترك من بعدي شعبا كريما واعيا » •

مضى مهذار مبتسما وكأنه لم ينطق بكل هذا الكلام الخطير تاركا السلطان المخلوع يتلقى ضربة السيف على عنقه •

شيزوفرينيا

كان الخبر الذي نشرته الصحف قبل نحو تسعة أشهر مثيرا حقا ، نشرت في حقل الجرائم ان شخصا معروفا في الوسط الفني كناقد مسرحي قد قتل زوجته طعنا بالسكين وسحق رأسها بحجارة ضخمة في مكان غير مأهول في ظاهر المدينة، وقد تركها تتخبط بدمائها وانصرف الى بيته وكأن لم يحدث له شيء ولم يرتكب جريمة عقوبتها الاعدام ٠ وعندما ألقي القبض عليه وجوبه بالتهمة ، أفاد أنه لايدري ماذا حدث ولا يتذكر من المسألة شيئا بل هو نفسه مندهش من غياب زوجته عنه ليلة وقوع الحادث ٠

وأخذت القضية تتطور شاقة طريقها القانوني المعتاد ٠ مثل الناقد المسرحي أمام القضاء والقى دفاعا مستفيضا بارعا ضمنه ذخيرته اللغوية والاعيبه الكلامية زاعما أنه فنان وأديب شديد الحساسية ، كره أن يرى زوجته تشغف بحب غيره وتخونه سرا ، واذ ما علم بأمرها اقدم على قتلها وهو تحت حوافز غير واعية وغير ارادية كالتي تصيب الانسان في ساعات اليأس والمحنة ٠

ومن الطبيعي ان كل قضية يشم منها رائحة اللاوعي تتكاتف الى اصطلاح نفساني يسمونه الشيزوفرينيا ٠ اي تنشطر ذات الانسان الى اثنتين ، احداهما تريد والاخرى لاتريد ، واحداهما تأمر والاخرى تأبى ان تطيع ، وتختصم الذاتان وتتحاوران وتتصارعان في معزل عن ارادة الانسان ٠ الشيزوفرينيا هي التفسير الامثل لكل جريمة يراد لها التبرير والتعليل ، وقد قلت لنفسي ان الناقد المسرحي سوف يفلت من العقاب ، وقد وقع ذلك فعلا ٠ احيل الى مستشفى الامراض العقلية وخرج التقرير من ذلك المستشفى مرصعا بالشيزوفرينيا ، أي اطلقوا سراح القاتل ٠ ظريف أمر الشيزوفرينيا يستطيع الشيزوفريني أن يهدم بغداد ويحرق البيوت ويزهق الانفس ولن يخطو خطوة واحدة نحو السجن ٠

مضت أشهر واشهر ثم التقيت مع الناقد المسرحي ذات مساء في مسرح يعرض مسرحية عطيل ٠ لم اتوثق من شخصيته بادىء الامر ، اذ كانت شهور المحنة والمعاناة قد خلعت على سيماه مظهرا

قاتما كئيبا • كان اكثر اسمرارا وأثقل وزنا وأحد نظرا وقد طلعت له شعرات بيضاء عند صدغيه • كان مثله دائما يحمل كتبا وكراريس وعليه امارات الرجل الوقور المستريح الضمير المعني بالفن • دفعته المصادفات أن يقعد الى جانبي فتبادلنا التحيات كأي انسانين التقيا صدفة في مكان واحد • قلت له « انني أشهد مسرحية عطيل لاول مرة» أجاب « وأنا كذلك ، الا انني قد قرأتها منذ حين ورأيت لها فيلما في السينما » ولم يبخل على شكسبير بكلمات مديح كبيرة ، ساردا بعض ملامح المسرح الشكسبيري سرد معلم متفهم متتبع ، واثنى بصورة خاصة على عطيل التي صور فيها شكسبير الغيرة والنفاق والانتقام • اطفئت الانوار وتتابعت المشاهد وجاء عطيل ليخنق ديدمونا • دخل عليها في غرفة النوم محترسا زائغ البصر تلمع سحنته السمراء وكأنها البرونز ، يتلو دوره الطويل وكأنه راهب في مناجاة ألهية ، ثم انحنى وقبّلها ، فاستفاقت ديدمونا من النوم وتساءلت من هنا ••• عطيل ••• الا تأتي الى السرير يامولاي •

قلت سائلا الناقد المسرحي «مامعنى هذه القبلة ؟ كان يجب أن يطعنها بالسكين ويمزق أحشاءها اربا اربا ويسحق رأسها بحجارة ويهرب الى مكان بعيد ويتظاهر بنسيان الحادث » •

نظرني مليا وبدأ وكأنه يستذكر حادثة ما ، ولكنه لم يتوثق ان كنت اتحدث عرضا أم اهدف الى غرض معين • ولاشك ان الطعن بالسكين وسحق الرأس بالحجارة والهروب والتظاهر بنسيان الحادث كان لها ردود فعل عنيفة في نفسه •

قال في هدوء وكأنه يحلم « حتى في القتل على الانسان ان يكون رحيما مؤذبا ، فلا يقتل بضربات اكثر مما تستلزمه عملية القتل » •

قلت « ان القتلة في بلادنا لايصطنعون الرحمة والتأدب » •

قال في أسف « الجهل وعدم التروي والمبالغة فى الانتقام » •

تمتمت مع نفسي « والشيزوفرينيا أيضا » ومضى الحوار بين عطيل وديدمونا ، حيث يقول عطيل « كنت ذات يوم فى حلب واذا برجل يشتم احد اهالي البندقية ، فأمسكت بعنقه وطعنته هكذا » فيطعن نفسه ثم يسقط على السرير ••

هتفت « رجل نبيل شعر بضخامة خطأه فآثر أن ينتحر بدلا

من أن يعيش بضمير معذب » حتى هذه اللحظة لم يتوثق من انني اعنيه بالذات وهذا ماكبح جماح غضبه ٠

سأل في ارتباك « من تعنى ؟ » ٠

قلت « اعنى القاتل الذي يترك ضحيته في عرض الشارع ، ويذهب الى بيته لينام في ارتياح » ٠

اضيئت الانوار واخذ المشاهدون يتزحزحون عن مقاعدهم ناثرين همساتهم وتعليقاتهم ، يخطون في تريث صوب الباب الكبير ٠ توقفنا لحظات وفي كل منا رغبة عارمة في أن يصل الى نتيجة ما ٠ كنت أريد إن اذكره بجريمته وكان يريد أن يتحقق من انني اعنيه ٠ لقد سدد الى وجهي نظرات ملتهبة بحب الاستطلاع ، وعندما بلغنا الموضع الذي يحتم على كلينا التباعد والانصراف قلت في مرارة وسخرية « يبدو ان في ايام شكسبير لم يكتشف بعد مرض الشيزوفرينيا والا لارتاح ضمير عطيل ولا من عقاب ولا عذاب ولا سجن ولا هم يحزنون » ٠

حملق في وجهي فى رعب « أنت تعرفنى ٠٠ أنت تعرفنى ٠٠٠ أنت تعنينى بالذات » ٠

قلت في برود « لا داعي لكل هذا الهياج ٠ اقول ان بعض الناس يختصرون حياة البعض الآخر ويبعثونهم قسرا الى قبورهم ولا يهمهم بعد ذلك أن يغشوا المسارح ويتظاهروا بالثقافة ، لان عالما من العلماء اكتشف الشيزوفرينيا وبرأهم مما يفعلون ويرتكبون » ٠

انصرفت عنه وكلانا مهتاج نادم مشمئز من أمر ما ٠٠

وراء سياج المرقص

كان التنزه ملذاً في ذلك اليوم الشتائي المشمس من شهر تشرين ، حيث خفت عند الظهيرة زرافات من الصبيان والطلبة والنسوة مختلطة بها زرافات اخرى من العمال الرقيقي الحال ، انحدروا من جوف المدينة الكئيب البائس . فتجمع هذا الشمل العظيم في منطقة البارك التي نالت اعظم رعاية من بلدية المدينة .

الشمس دافئة تسكب خيوطها اللامعة في ضخامة وسخاء كشلال عظيم فائق العذوبة . ناشرة في اغصان الكازورين والكالبتوس والسرو بريقا متألقا زاهيا . كانت القصور القلاعية تنهض في براعة من اعماق الطين تزينها الشرفات السمنتية المظللة ويحيط بها الورد والياسمين ويفرش أرضها العشب السندسي الاخضر تردد في خفوت تغاريد الطير تتجاوب في مرح من خلل الاغصان المتأودة مع مداعبات النسيم .

في نهاية المدى الذي ينوشه طرف المرء ، تقوم ابراج معامل الطابوق مصعدة في قوة ، نحو السماء ، ملطخة هنا وهناك بشحائم الدخان وخيط رفيع اسود يتعرج عند افواهها ... ان حركة دؤوبة مابرحت تنشط هناك ، وان رجالا بأسمال بالية يسعون بلا هوادة في اطراف المكان ، دافعين عرباتهم الصغيرة في الفرن المتأجج معرضين صدورهم المضعوفة لتيار الهواء الواخز ... أكوام بالغة العدد ملأى بنفايات البيوت والمطاعم . ان الناس لينتشرون على الارض الرحبة في تفسح وتباعد كما لو أنهم عازمون على استحواذ على أكبر مساحة من الارض .

وعند الساعة الرابعة طفح مهرجان المتنزهين ، خرجت النساء مائسات بمعاطف الجوخ الثخين ، ينقرن البلاط النظيف المصقول بأحذية عالية ، ناشرات على رؤوسهن المكلّلة بشعر غزير عصائب حريرية مزركشة واخريات قد جززن شعورهن على طريقة الصبيان ، وتخطى الرجال الحيارى ذاهلين يرمقون الوجوه المليحة في شره وفضول واعجاب .

كان ابراهيم قد اقتعد كرسيا في واجهة المقهى ، يغمر شعاع الشمس الحار جسده بأسره كما لو انه يعتزم تجفيفه ، يطيل نظراته

اللامبالية في ضجر ، عاجز عن ايجاد مبرر لخروج هذه الجمـــوع الى الحدائق · يفضح لباسه التافه المتكون من ســـترة أمريكيـــة مستعملة وسروال وسخ مدعوك عن رقة الحال ، الا أن عينيهالعميقتين الدافئتين وجبهته المرتفعة تكشف جميعا عن ذكاء والمعية وعزم ·

عطف رأســه للوراء بغتة مستفيقا على صوت ينادي اسمه ·

ـ هالو ابراهيم مساء الخير ·

كان القادم مهندما حليق الوجه ، تتألق وجنتاه الصقيلتـــان باحمرار طافح ينبيء عن صحة جيدة ، مرتديا سروالا من الســـرج وقمصلة من الجلد البنى الغامق محزومة حول خصره بعناية ·

ســحب يعقوب كرسيا بيد متمرسة قوية ، وحط عليه جسده القوي وتابع يقول : يبدو لي انك منشرح ·· هلا نظرت ، كل شيء يشع بالحبور والابتهاج ·· ها هى بغـداد ··

أجاب ابراهيم في تأمل :

ـ « بلى هي نفسها بلد الرشـيد والمأمون · آلاف من الحطـام البشري المستهلك يركب اليها الركائب ، الوريث الاخرق تجـــذبه حاناتها ومواخيرها ، والعامل يســعى الى معاملها وأرصفة شوارعها والمريض يلتمس مستشفاها ومقابرها والتلميذ يطرق أبواب معاهدها واصحاب الحاجات يدبون في جحافل وارتال ، تقذف بهم القطـــر والسيارا ت والســفن » ·

ظلتالابتسامة عالقة على محيا القادم الجديد وقد انفرجتشفتاه كاشفتين عن صفين منالاسنان الشبيهة بالعاج ، رد على صاحبه مداعبا « اذن هي مغناطيس » ··

ـ لا بل هى البالوعة الكبرى ·

تنهد يعقوب وهو يغمض عينيه نصف اغماضة ·

ـ ايه بغداد بلد الرشيد ··· لكم من أقوام داســـت عــلى ترابك ، انك لتنظرها وقد غدت متحفا للازياء من عهد بابلوالاسكندر الى عهد الروم والكلدان والاتراك والانكليز ···· هاته الســيدات انهن كالطواويس النافرة ، متحليات بكل غال ورخيص ··· انمـا يبدو لي اننا مقبلون على حضارة زاهية ، لقد قيل ان الحضارات تبدأ برصف الشوارع العريضة ، وها هى ذي قد رصفوها لنا » ·

سرت عدوى الابتسام الى ابراهيم ، الا أن هذا شحن معهـــا قدرا طيبا من الســــخرية ٠

ـ هذا زعم باطل ايها الصديق ، ان حضارتنا قد زهت منــذ عهد ســحيق ولكننا تباطأنا وعدنا القهقرى في احيـــان كثيرة حتى غدونا نستمرأ السيء من الفعال ونفاخر بما لدينا من قشور زائفة٠٠ كل مالدينا هو قشور ليس غير ٠

ـ «قشور ٠٠ اجل قشور» تمتم يعقوب ٠٠

ـ « لنا دور للعجزة وجمعيات لمكافحة السل والتســـــول والتشرد واخرى للعلل الاجتماعية ، ولكنك اذا ما كنت في الشـــارع اصطدمت بآلاف العجزة والمرضى والمشردين ٠٠٠ ترى من يعنى بكل هؤلاء ؟ من يكفــل لهم العيش الكـــريم ؟ ان الجــوع محنــة كبيرة ياعزيزي » ٠٠

ان الشمس لتجنح في هذه الأونة نحو الغروب ، قد اختبــأ بعض من قرصها العظيم المحمر وراء الابنية الناهضة فاســـــتطالت **ظلالهـــا السمر وفرشت أرض الشـــارع كسجاجيد كامدة اللون ،** وطفق ضباب مزرق يتصاعد عبر الفضاء ٠ واذ ما ابعدتهما خطواتهما الرخوة عن مكان الاحتشاد عثر يعقوب على شيء يقوله فغدا يغمغــم فكلام كثير مضطرب هادفا تزجية الفراغ ، حتى سأل ابراهيم صاحبه عن عدد الانفار الذين يعيلهم ٠

ـ انهم ستة ٠٠ تصور اي هرج يسود المنزل في الصباح ٠٠٠ لي شقيقة أرملة لها ثلاثة اطفال ، ووالدي هرم مهشم ، والوالــدة قد قضت نحبها في الشتاء الماضي بعد ان اتخمت هموما واوجاعا ٠ منزلنا ضيق صغير يضم غرفا اشــبه بغـــرف التوقيف في مراكــز الشرطة ، معتمة ، كئيبة ، منخورة الجدران ٠ اقول ان زوج شقيقتي المتوفى كان نجاراً نسيطا حادباً على زوجته واولاده ، وقد اتقنت الحرفة على يديه ٠٠ ثم كانت وفاته ٠٠٠ اصيب بحادث داخل المعمـــــل ٠ أفلت المنشار الكهربائي وبتر ساعده واحدث جرحا عميقا في الصدر، فتمدد يئن فوق النشارة الجافة التي امتصت دمه المنزوف ٠٠٠ انه قد مات ٠ مات ميتة سريعة خاطفة كالطير الذى يطبق عليه الصقر ٠

ـ والتعويض ؟ سأل ابراهيم بلهفة ٠

ـ كان تافها انفقته الارملة في ثلاثة اشهر ٠

كانت الظلال تستطيل باطراد حتى غمرت الطريق وترنحت الشمس ببهائها العظيم متوارية شيئا بعد شيء حيث تصدر السماء قمر شاحب كليل يسترق نظرة حيية معتذرة ، يدب ببطء كبير كجندي متعب يتسلم دور المناوبة ٠ تلاحقت حافلات الباص بازيزها الزاعق الحاد ، تلتمع في جنباتها الاضواء الباهرة ٠ كان ابراهيم يطيل النظر الى ركابها وكأنه يستبحث فيها عن احد ، واذ ما بلغا العلوية عرجا في اتجاه المسبح ، فضئل زحام المارة وتخفف الشارع من وطء الخطى وهب نسيم اليل البارد الندي العَبِق بشذى الازهار ٠

وقذف من المنتأى القيثار والبيان مع ضربات طبل كبير تذوب جميعا في اغنية دافئة تطلقها حنجرة نائحة اسوانة تتشكى باكتئاب٠

ضجيج المعمل ومضايقاته والاصوات الناشزة الكريهة المنبعثة من المصفاة الكهربائية وارتطام الاخشاب الكبيرة وهدير الآلات الصاخب المجلجل ، كل ذلك قد اثقل على نفسيهما ٠٠ واما ههنا فقد تفتر كل شيء ناعسا في هجعة منومة لذيذة ٠

استند الصديقان بسياج المرقص الفولاذي واصاخا السمع٠ كانت سيارات فخمة كثيرة مرصوصة على امتداد الطريق وجمهرة من السواق يتبادلون الحديث في همس ، ورجل اسود مجلّل بمعطف رمادي يستقبل الرواد عند البوابة الكبرى ، يتمشى ويبتسم ، ومن مكان بعيد تلوح مدخنة معمل ودخان حليبي يتصاعد كالنافورة ، وثمة سيدات متألقات بالجواهر والزينة مكشوفات الصدر ، يذرعن الرواق جيئة وذهوبا وعلى شفاههن القرمزية ابتسامات عذبة بالغة الظرف ٠

من الجهة المعاكسة تقوم أشجار الغرب والطرفة متشابكة كعروق الدم في جسم الانسان ، يرين عليها صمت ثقيل لايكدره سوى نقيق الضفادع المتصاعد في رتابة مضجرة ، ودجلة يدحرج مياهه الطينية في فيض متلاحم قد انعكست عليه اشعة القمر على هيئة فرجال ، رأسه في السماء المخملية الزرقاء وذراعاه مغروزتان في اللجة ٠ ان مشاهد كثيرة مفعمة بالكآبة والضيق قد استعرضها

هذا النهر في جريانه الطويل من الكاظمية وضفتي بغـداد والكرادة ، وهنا تتسمع مياهه المودعة المنسابة الى عزف القيثار وقرع الكؤوس وضحكات السـعداء ..

سار الصديقان بحذاء السياج الفولاذى حتى انتهيا الى كومـة عالية من الطابوق الجديد المعد للبناء . صاح يعقوب مشيرا اليه :

ـ « اسرع ، لنرتق هذا الكوم من الطابوق ونجلس عليه « .

قفز قفزة رشيقة وقرفص في مكان عال ، وتبعه ابراهيم وجلس الى جواره في غير ما عجلة فتنهد وقال في تساؤل :

ـ ما اغرب هذا ... المتسولون يقتاتون على فضلات المطـاعم وها نحن نتسلى من فضلات المراقص ... الناس جميعا متسولون ، كل بطريقته الخاصة . كل ضعيف هو قوي تجاه من هو اضعف منه. بعضنا يذوق بأس بعض .... هذه سنة حياتنا .

قال يعقوب مفسرا وجود المرقص .

ـ لم يكن مرقصا في أول عهده . كان كازينو فقط يقصـــده الناس أجمعون ، والاجرة عشرون فلسا ، ثم ارتفعت الى خمسين . انهم اليوم قد جعلوه مرقصـا .

تلاشى الغناء النائح الكئيب وانبثق عزف عاصف ترافقه أصوات ضاجة مبحوحة مع اصوات اخرى ثاقبة حادة من الطرب الذي ينشد في حفلات الزنوج .

ســأل يعقوب :

ـ هل شهدت شيئا كهذا في بلدتك البصرة ؟

تنهد ابراهيم وقال « البصرة فينيسيا العراق ، الا أن فيهـــا مايدمي القلب . سأقص عليك حكايتى فيها » وشرع يقص حكايتـه كاستاذ يوضح مسألة « عملت ذات مرة في معمل ضخم للنجارة .كان المعلم احد مشاهير النجارين في ثغر العراق (العابس) محله بارز وله شهرة ذائعة . داومت بضعة ايام تجلت لي فيها صور الاســـتغلال التى يمارسها المعلم مع عماله المساكين . فوفد علينا ذات يوم مفتش من مديرية العمـــــل فتخيرني من دون العمال جميعا ليســـألنى ويستوضحنى عن أحوال العمل . سألنى عن الاجور والاجازات وما الى ذلك .كان من المنتظر أن أقول خلاف مارأيت وان أمدح واطنب

كان عليّ ان اكذب واخون ضميري وقد رمقني المعلـــم مشجعا ان أسترسل في أكاذيبي · ولكنني قلت الحق ·

ــ كلا أيها الرجل نحن لانتمتع بقانون العمــال ، فالاجــازات المرضية والاعتيادية تكاد تكون معدومة ويفهمها المعلم على انها نوع من التبطر والكسل ، والاجور واطئة لاتكفي لاعاشة العامل وعائلته والعمل الاضافي بخس لاتدفع قيمته في غالب الاحيان ، ونحن نعمل عشر ساعات لا ثماني ، سجلات المعلم اعتباطية مزورة ·

ــ حقا هذا ! انك لبطـل ياصديقي ·· كيف تجرؤ ؟ » هتف يعقوب في شــدة ·

ــ لم أجبن ؟ يجب أن نكشــف آلامنـا جهرة للناس ·· هــا انظروا أية حياة هي هذه ·

ــ وماذا بعد ؟ طردوك من غير ريب ·

ــ طردوني من غير ريب ··· شــملتني البطالة عــدة أشهر ، واستهزأ بي العمال أمــر الاســتهزاء ولم اشتغل في ايما معمل بعد الذي وقع ، وسرت عني اشاعات مختلفة مدارها انني مشاكس ارعن قليل التبصرفي مصالحي · وبعـــدها زحفت عليّ جحافل البؤس مدندنة كالبعوض ، آخذة بتطويقي ونهشي · كانت تلقى على منزلنا يوما بعد يوم ظلالا اشد قتامة وابعد غورا في الفاقة والعدم · غدونا نحس بالطاحونة الجلمودية لتفتيت الكائنات البشرية التي خلقهــا الله على أحسن صورة ·

وذات ليلة مدلهمة سوداء في جوف الصيف اللافح ، حيث بدأ كل شيء متشحا بالصمم ، عدت الى منزلي في الزبير وهو يبعد نحو ثلاثة أميال عن مركز المدينة ، عدت مشيا على الاقدام ، قد بلل العرق حذائي واطلى قدمي بمعجون صمغي لزج متعفن ، عدت يائسا منهوكا قد خابت جهودي كلها في ايجاد عمل ، دلفت الى منزلي زافـــــرا أنفاسي في غيظ وتترشح من نظراتي نذر ثورة مريعة ، لقيت الوالد مستلقيا على حجارة الارض في وهن ووالدتي الى جاره تهدؤه من وطأة الجوع الذي يعانيه ، ولما أحسا بوجودي هشا وبشا وحسبا اننـــي احمل اليهما الطعام ·

قلت بلا تمهيد « ماذا افعل · البطالة مستحكمة » فتنهــــد

والدي وسمعته يقول في صوت مخفوض ضعيف : « أنا جوعـــان سأموت الليلة » • لم تبق لي أية مسكة من عقل ، هرولت الى المطبخ وتناولت بلطة كبيرة وخرجت الى الطريق أما ذلك الشيء الذى يسمونه قانون العقوبات فلم يخطر لي على بال •

هرولت مســرعا هازئا حتى بالجريمة نفسها • تذكرت وانا على الطريق طباخا هنديا ، يدير مطعما صغيرا يقع على بعد يسـير • قلت لنفسي : لابد أن يكون فى مطعمه بقية من طعام ، سأنزع القفل واسرق كل ماتصل اليه يدي ، استحسنت الفكرة وراقت في خيالي، ورحت أتمثل ذلك الطباخ القمىء المطلي بهباب المداخن والمكشـر عن ســنان صفر منخورة ، كيف ســـيهلع من ضخامة البلطة ويخر متصدعا من الرعب • قطعت نحو مئة خطوة ، فأعترضتني على الطريق سيارة لوري محملة بالسمك • كان ثمة حمال واحد يرسل شـخيرا مزعجا من خيشوميه الكبيرين ، قد صرعه التعب واستنفد قواه • يضيء عند رأسه مصباح صغير عكر الزجاجة ، والســائق يغالب النعاس على المقعـد •

تقدمت بحذر استرق النظرات في احتراس كأحد ابطال الافلام البوليسية • جذبت سمكتين وعدت بهما الى المنزل في الحال ، شويتهما بأعواد الخشب ودعوت والديّ للعشاء فانتعشا بعد الاكلة اللـذيذة وشاع في وجهيهما ماء الحياة • قلت لابي « انظر ما الذي فعله فيك الجوع ، عمـرك يطول بالاغذية الجيدة والجوع يقتلك بيوم واحد » لكم وجدت الجريمة في تلك الليلة عملا بطوليا ، انه ليفوق اعمــال الاســـكندر •

الموسيقى الهشة المصطنعة بايقاع ناعس قد ارتفعت من جديد، وترآت الاذرع البضة تحت أضواء المصابيح وتجاوبت الضحكات هنا وهناك ، قفز الصديقان الى الارض ومرا بجماعة الســواق • كانت سنة من الكرى قد اسلست قيادها في اجفانهم فهوموا وتثاءبوا ،وتسنم القمر القبة المخملية الزرقاء ناشرا وهجا مخضرا وبدت قمم الكالبتوس المتشامخة ألمطْلَقَةَ لهاحرية النمو تتراقص في مرح وتوشوش فى همس خفيض والشارع المقفر من السابلة يعكس زفته الاســـود المصقول شعاعات نحاسية بارقة • همس ابراهيم :

ـ المدينة هاجعة في سبات ، كالثعبان الجبار الذي جمده البرد٠ ستخرج مع الفجر الوجوه التعبة تنقّب في الفجاج ٠ مذعورة قلقـة تبحث عن شيء يصح هضمه فى المعدة وعن بوارق أمل ٠ آه لكم هي الانفس في شوق الى الجديد ٠ انها لتسفك دماءها في سبيل أن ترى الجديد » ٠

عرجا على اليمين وجرا نفسيهما فوق الربوة الخفيضة حيـث كان النهر يقذف بتياره الجارف ضاربا الشاطيء الرملى الهشضربات واهنة وهدير ماكنة مركب يشق حيزوم الماء على الضفة الاخـــرى ونداءات عميقة لا تكاد تصل الاذن ٠

تنهد ابراهيم « لم يتحمل الناس هذه الآلام ، ومن فرضهـا عليهم ، ومن أراد لهم ان يكونوا بؤساء ٠ هذه هي القضية ٠

أجاب يعقوب شاعرا ان الكلمات المناسبة تعوزه فاختلجت شفتاه ومن اسنانه المطبقة قال : تلك هي القضية ٠٠٠٠ قضية بؤس الانسان وقضية كفاحه لدفع الظلم وخلق العالم الجـديد » ٠

حب الاستطلاع

حب الاستطلاع ميزة طيبة لدى بعض الناس تقودهم أحيـانا الى معرفة أمور كثيرة سارة وتقودهم احيانا الى متاعب ومصـاعب ومآزق ٠٠ ويقال ان نيوتن اكتشف الجاذبية عن طريق حب الاستطلاع وربما ركب ماجلان البحار السبعة وأثبت كروية الارض وهو مستطلع ، وزج الفتية المغرورون أنفسهم في بحر الظلمات وهم مستطلعون ٠ ولكن صاحبي وقع فى مأزق من جراء تعلقه بحب الاستطلاع ٠

قال « انني من المولعين بحب الاستطلاع ، يقرب ولوعي ولوع بعض العقلاء في جمع الطوابع البالية الوسخة ٠ هذه الهواية لم تسترع اهتمامي فى يوم من الايام ٠ انها هواية الكسالى الذين يجري فى عروقهم حب المتاجرة وكسب الارباح ، كما انني لم أهو الشطرنج لانه متعب للفكر فيما لا ضرورة لاتعابه ، وانه يفيد اولئك الذين يشكون الروماتيزم والتهاب المفاصل وضغط الدم ، والمولعين في اطلاق الزفرات وفرك الجبين واتخاذ هيئة العلماء المفكرين في حين انهم لايعدون أن يكونوا مقامرين كسالى ٠ انهوايتى أن أدرس حياة شواذ الناس ، كيف يعيشون ويفكرون ويسلكون٠ ذهبت الى كل مكان خطر ببالي ، وتحملت متاعب ومضايقات لا سبيل الى تفصيلها ٠ ان الانسان ليس حرا في الدخول الى المكان الذي يريده، ثمة حراس وشرطة واستفسارات واثارة شبهات وابراز هويات ولا يمكن لاحد ان يقول انني فضولي مستطلع ادرس حياة شواذ الناس، لان ما من مكان يرحب بالفضولي ويود ان يجعل من نفسه فرجة له ولكنني على أية حال دخلت بشتى الاعذار ، فقد رافقت اقرباء متوفى الى المشرحة وحملته بيدي الى تابوته ، ودخلت السجن في ايامالزيارات العامة ، ورافقت اصدقائى الصحفيين الى الملاجىء والمياتم والمعاهد والمدارسالداخلية والمعاملوالمكاتب وأبديت منالاهتمام أكثر منرفيقي الصحفي ، ومشيت وراء الجنائز الى مثواها الاخير وكنت اقربالناس الى حفار القبور ٠ الا أن المكان الذي اخترته اكثر من سواه لممارسة حب الاستطلاع هو مستشفى الشماعية ، فيه الصفوة والصفوة من ملتاثى العقول والشواذ الزائغين ٠

اسلك في طريقي الى المستشفى طريق مدينة الثورة ، فهناك خط للباص يخترق الثورة بكاملها حتى يصل الى تخوم معامل الطابوق، ومن هناك تنفسح أرض شاسعة ، وكأنها قطعة من البيداء ، يستغرق اختراقها نحو نصف ساعة مشيا على الاقدام ، تنتهي الى سكة قطار كركوك ، وتقوم عندها محطة صغيرة للقطار مبنية من الطين ومحاطة بأشجار السنديان الباسقة . واذا ما وطأت قدما الانسان الشارع النظامي أخذتاه الى مستشفى الشماعية بعد اجتياز عدد من الابنية ومبنى المدرسة الاصلاحية . هذا المستشفى هو موطن الشواذ الملفوظين من المجتمع الرزين الهادىء .

وصلت ذات مرة الى المستشفى عند الظهر ، وفي هذه الفترة من النهار يخرج عقلاء المجانين لجلب الطعام الى من دونهم عقلا، اولئك القابعين في الردهات في شبه ذهول يهذون هذيان المحموم ، عليهم أسمال بالية في غاية الرثاثة والوساخة . اما الذاهبون لجلب الطعام من المطبخ الكبير فيتمتعون بحواس سليمة وصحة جيدة ، والله اعلم ما في العقول . تبعت أحدهم وكان يبدو لي متزن المشية نظيف الثياب، في قدميه جورب وحذاء ، كان في ريعان الشباب وفي اوج النضوج الجسماني ، ولكنه لم يبد شرسا ، فلا يخيفني من المجانين الا الشرسون منهم . مشيت خلفه حتى غدوت على قيد خطوتين منه . خاطبته في مرح من وراء ظهره .

ــ لم لاينقلون اليك الطعام بدل ان تنقله للاخرين ؟

استدار بكامل قامته ونظرني مليا وابتسامة مريحة تتلاعب على شفتيه . قال في عتاب :

ــ « هل تتمنى هذا لي ؟ »

قلت « اتمنى لك مزيدا من الراحة »

قال « وهل يطمع الانسان في خير اكثر من هذا الخير ، ان يتنزه بين الاشجار وفي نهار مشمس وفي يوم من ايام الربيع ، فيصفو فكره وترتاح نفسه »

قلت « مبارك لك هذا النعيم »

قال « اننا العقلاء يكرموننا بهذا الواجب ، اما سوانا فقد اقفلوا من دونه الابواب »

سألته« ماهي مهنتك ؟ »

وبدون أي حياء اجاب وكأنه يقول اننى ملك قال «نشـال» واستطرد يتحدث « عندما يغلب الجوع معدتي ولا أجد درهما فـى جيبى لابتاع ما أسد به رمقى ، وعندما ارى المأكولات الدسـمة اللذيذة تشـق طريقها في أفـواه المترفين السـعداء ، وعندما أرى ابتسامات الارتياح على الوجوه ، أقول لنفسى لانتقم انتقاما صغيرا • لا أقتل ولا اجرح ولا اثلم عرض أحد ولا أكذب ولا أنافق انما انشل ما في الجيب من دريهمات • واقل الاشياء خسارة للانسان هو ماله، وبالامكان أن يتجدد كل يوم في الجيب ، على حين لايتجدد العمـر ولا الصحة ولا الشرف ولا الساق المبتورة ولا العين المقلوعة •

قلت في نفسي هذا فيلسوف ومفكر ••

سألته « اذن كان من الانسب ان تكون فى السجن بدلا من ان تكون فى مستشفى » وأردت أن اقول للمجانين الا انني اسـكت احتراما لكياسته •

قال في توكيد « انني فضلت أن أكون فى مستشفى المجانين، بين هؤلاء البسطاء الابرياء ولا اكون بين القتلة والمجرمين » •

كان جذابا رائعا لمست فيه المعية وحصافة فمالت نفسه اليه ورافقته في المسير • قلت له «انها مهنة ظريفة تعتمد على الذكاء وخفة اليـد » ••

أجاب « الى اقصى الحدود » •

همس الشيطان فى اذني لم لا اشهد جانبا من براعته

سألته : كيف تنشل ؟

قال فى سرعة وارتياح « تريد ان تعرف ، تريد ان اريك •• حسنا » جذب رفيقا له من ياقة جلبابه وهو يقول « نفتعل أنا وزميلى مشاجرة موهومة ، يكيل اللطمات أحدنا للاخر وهكذا » وشرع يضرب رفيقه ضربا مصطنعا في براعة المتمرس بالمشاجرات الغوغائية • قال « أنت تحجز بيننا ، تبعد أحدنا عن الاخر ، افعل ذلك بقوة وحزم • ضع يديك على كتفي وابعدنى عن خصمى ؟ » •

وضعت يدى على كتفيه فانحنى جسدى الى الامـام قليلا ، وانحلت ازرار سترتى ، وتهدلت جيوبى ، وزحف حزامى عن مكانه،

وتطايرت ربطة عنقي ، واصاب شـــعرى الاختلاط والتشويش . وشعرت ان اقداما ثقيلة سحقت حذائى · قلت فى نفسى « مـــالى وهذا المزاح الثقيل » فانتحيت جانبا فى عسر وانا اقول له « حسنا فهمـــت » ·

خرجت الى الشارع وانا فرح بلقاء نشال نصف عاقل ونصف مجنون ، فضل المستشفى على السجن · ركبت سيارة الباص فـــى مؤخرتها اذ كانت تغص بالجالسين ، أقلعت من باب المســتشفى بين هرج الراكبين وحشد صغير من المجانين يطلب صدقة وسكائربصوت بائس ذليل · علق أحد الركاب « المجانين مشـعوذون » فـرد عليه الجـــابى « لا تقل هذا انهم مرضى بائســون » ثم أخذ في توزيـــع البطاقات وجمع الاجور ، فاشتد النقاش وتعددت الاراء هـــل ان المجانين مشعوذون أم مرضى ، ولما دنا الجـابى منى مددت يدى الى جيوبى لاستخلص الاجرة ، فلم اعثر على شـــىء من المال فخجلت وارتبكت · اردت محفظتى فلم اعثر عليها ، لقد نشلنى من حيـــث لا ادرى · فشعر الجابى بحيرتى ورق لي قائلا « لعلك نســـيت دراهمك » قلت فى غضب وحنق « نشل دراهمى مجنون فـــــى المستشفى » ولكن ما ذنبى انا ان افقد ما معى من مال · انها بلاشك عقوبة حب الاستطلاع ·

مثقال من ذهب

حين اجتاز جابر شهادة البكالوريا للصف الخامس اضطر الى مغادرة الناصرية والنزوح الى بغداد للالتحاق بكلية الحقوق ، وقد لاقى الامرين من جراء اقامته فى فنادق العاصمة ، فثمة ازعاجات موصولة ومضايقات تترى فى الليل والنهار من نزلاء أكبر منه سنا ، يضجون فى الممرات وعلى السلالم ذاهبين ايبين ، يسعلون ويبصقون ويهدرون من افواه وسخة منخورة الاسنان ، ولا تكاد المغسلة تنجو ساعة من منظر مفزز مثير ، فقد يخرج احد النزلاء بملابسه التحتانية كاشفا عن ساقين هزيلتين قصيبتين يتمخط ويبربر أو يتخطر آخر ببطن مسترخ مندلق وصدر محفوض اشبه بدلاكى الحمامات ٠

ويوم عثر جابر على منزل الحجية نورية كان نصرا مبينا ، افردت له الحجية الورعة فى الطابق الثاني غرفة نظيفة ، مكسوة أرضها بالطابوق العريض ويطل شباكها الوحيد على زقاق ضيق قليل الضوضاء ٠

كانت الحجية فى غالب ايامها تتربع فى ايوان المنزل على بساط عتيق ، تستقبل زائريها من الجيران ، تسقيهن الشاى وتقدم لهن سكائر ذات اعقاب فى سبيل الثرثرة ورواية النوادر والحكايات٠

كان مجرد وجود هاتيك النسوة أو وجود الحجية نفسها مدعاة لاستئناس جابر ومسرته ، اذ كن يضفين على المكان صفة الحياة المنزلية الطبيعية ، ولذا فقد رقت حاشيته وزايلته وحشته وارتاضت شفتاه على تحية النساء والابتسام لهن ٠ ولحداثة عمره وضآلة جسمه وتورد وجنتيه الطريتين الناعمتين ، كن ينظرن اليه كاحد اخوتهن أو ابنائهن ، فلم يكن يتحرجن أو يتململن أو يملن الى الانزواء وادارة الظهور شأنهن في حضرة الرجال البالغين الكبار ٠ ويخلو المنزل منهن عادة مساء كل خميس وسحابة نهار الجمعة ، حيث تذهب الحجية الى الاعظمية لزيارة ابنتها ٠

وقد لقى جابر من دونهن امرأة فى مثل عمره لما تبلغ العشرين غريرة طائشة تميل الى النزق والثرثرة ، يدعونها شكرية ، وقد تزوجت برجل لا يتقن ايا من المهن ، ولذا كان معظم دهره عاطلا، قد انجبت منه طفلة اسمتها شادية تبلغ من العمر ستة أشهر ٠

كانت ذات بشرة نحاسية وعينين خضراوين واسعتين مليئتين بتعبير صبياني حار متدفق شبيهة بنساء جزر الهاواى ، ولها جبهة ضيقة ينبثق من أعلاها شعر كستنائي عميق يهطل في ضفيرة خلف ظهرها • فتنته هذه الزوجة الشابة واستأثرت باهتمامه وتفكيره ، ولعل كان ذلك حصيلة بسمات شكرية وانبساطها ومرحها مع الشاب العاطفي الذى يدرس القانون •

كانت تزور الحجية فتقتعد (تختة) من تختات المطبخ الواطئة التى لا ترتفع عن الارض أكثر من شبر ، فتصالب ساقيها لتفسح فى حضنها مجالا كالمهد تضع فيه الرضيعة التى ترسل انينا وشخيرا لا ينقطعان • كانت الطفلة مولعة بالرضاعة وكأنها تلهو بالثدى أكثر من مص حليبه ،فتخرجه لها الام من شق قميصها قويا ناهدا مرتفع الحلمة ، فتنقض عليه الرضيعة بفم شره يابس ، ان منظرها لا يعدو ان يكون منظر جرو صغير أو فرخ قطة بائس جائع •

كانت زياراتها لا تنقطع ، فهي خارجة من البيت او داخلة اليه، ولا يكف لسانها عن الشكوى من بطالة زوجها المزمنة ، وتتلفظ باسماء الوزارات والشركات والمكاتب التى يراجع اليها زوجها لفظا مغلوطا ناقصا يثير ضحك جابر وسخريته • ورغم ذلك فلم يتكشف منظرها عن شظف العيش ، بل أنها لتتظاهر ببسطة الحال ، فتتزوق فى غالب الاحيان وتصطنع العطور والادهان وتغدو الى السينما فى مناسبات الاعياد وتذهب لزيارة صديقاتها وتتحدث فى تعال ولها نفس طويل فى النقاش والملاحاة •

ولقد اعترف جابر لنفسه من دونما مواربة أو مداورة أنه قد أحبها ، وامسى مشدودا الى المنزل طمعا فى لقائها والتحدث اليها ، الا انها اعتادت ان تسمعه « انا لست من اولئك » كلما خاض معها حديثا وعاج الى اطراء حسنها أو هم بلمس ذراعها وشعرها • كانت تجفل وتزوى ما بين حاجبيها بنظرة ثابتة صارمة ويرتسم فى عينيها عناد صلب مكابر وتقول « انا لست من اولئك » وقد بقيت هذه العبارة غير مفسرة فى معجم شكرية •

تحدثت ذات يوم الى الحجية فيما هى تبثها بلواها ومصائبها• تحدثت عن اضطرارها منذ حين الى بيع كافة مصوغاتها وحتى ساعتها

لتغطية نفقات العائلة ، وانها كفت عن تجهيز نفسها بالفساتين الجديدة، وانها صارت تعاني كثيرا من قسوة الحياة، وانها لم تعد بصحة عامرة ، وان ثمة الاما ههنا وهناك صارت تعروها بغير انقطاع ، وليس في بيتها شيء يمكن لزوجة مضى على زواجها عام ونصف عام ان تتباهى به وحتى (كنتورها) غدا عرضة لمساومة الدائنين • واختتمت شكواها بحسرة طويلة مشبعة الما « انا زوجة تعسة لم اوفق في زواجي » •

والحقيقة كانت شكرية وابنتها عاطلتين من الذهب ، فلا يزين معصميهما وعنقيهما واصابعهما شيء من الاصفر اللماع الذى يخلب بريقه النساء ، كما ان شحوبها وهزالها يبدوان طارئين ومفسدين ومهدمين لجسد كان جميلا مليئا منذ فترة يسيرة من الزمن •

كانت تمتنع عن ارتقاء السلم والصعود الى الطابق الثاني مهما كلف الامر لعلمها ان الحجية تؤجر الغرفة العليا للعزاب ، فميدانها الفسيح هو الطابق الاول تجول وتصول في غرفة وايوانه ومطبخه • يستلقي جابر على سريره ينصت باهتمام الى حديث المرأتين محاولا التقاط المزيد من اخبار هذه الزوجة المنكودة التي صار ينتابها سعال كالهمهمة وتشكو الحمى • كان يتمنى لو يتيسر له اقناعها بالصعود اليه والجلوس الى جانبه على القنفة الكبيرة المحتلة نصف غرفته ، ولكم كان يسره ويوقع الابتهاج في نفسه لو تكرمت وعبثت باثاث غرفته ، أو اوقدت له طباخ الطعام ووضعت فوقه قوري الشاي حتى يفور فتصبه له ويشربان سوية ، انه سيكون انذاك حرا في مخاطبتها وسيصطنع معها الرقة والوداعة في منجى من عيني الحجية الثاقبتين ، انها ستكون قمينة بترديد عبارتها « انا لست من اولئك» مئات المرات حتى يتعب لسانها ويصيب رأسها الدوار • الا ان ذلك كان امرا عسيرا ، حتى انها تمتنع على نشر الغسيل لصديقتها الحجية فوق السطح ، فكأن هذا السلم في اعتبارها مفازة موحشة تنتهي بها الى شر مستطير •

كانت رغبة غامضة تدور في نفس جابر ، شيء كالدوامة العنيفة يهزه ويلويه ويشوش صفاء ذهنه ، وقد وضع خططا مختلفة ليحمل شكرية على الصعود اليه ، وارصد لهذه الغاية بعض النفقات ،

ففاجأها ذات يوم باعتزامه تقديم هـدية لطفلتها شادية فسـألته باستغراب وعلى شفتيها ابتسامة وديعة محببة ·

ـ أي نوع من الهدية ؟

تظاهر جابر بالتفكير في انواع الهدايا التي يمكن تقديمهـا للاطفال · الا ان الهدية كانت مقررة سلفا ، فقال لها في سـرعة وخجل « سوار من ذهب بقدر معصمها الصغير لن يزيـد وزنه عن مثقال واحد » واستطرد مداعبا الطفلة « لكم احب طفلتك هذه » فمال اليها وانتزع طفلتها من بين ذراعيها وانشأ يلاعبها ويهزهـا ويربت على خديها ويفرك شفتيها ، فهشت الطفلة وغرغرت فرحة ، فاعادها الى أمها · سألت شكرية بحزم « متى يكون ذلك ؟ يجب أن يصـدق وعدك » لم يبال جابر بشكوكها بل سألها في رفق « اين ستستلمين السوار في هذا الطابق أم تصعدين الى فوق ؟ » فأجفلت في انكـار « هذا مستحيل انا لست من اولئك · اصعد السلم وادخل غرفـة أعزب » فأوضح لها جابر في شـبه توسـل واسـتعطاف « ولكن ياشكرية يجب أن تتقي فأنا لا أنوي بك شرا » قالت « تستطيع أن تسلمني السوار في هذا الطابق · علام ارتقاء السلم ، وانا مريضة معتلة الهث من تعب طفيف » ·

أسمعي يا شكرية ـ قال « حالما اجلب لشادية السـوار من الصائغ ، اضعه فوق منضدتي فتأتين أنت وتوقدين الطباخ وتضعين عليه قوري الشاي حتى يفور فتصبيه لي فنشرب سوية · أننا نفعل ذلك في بيتنا في الناصرية ، فأقعد مع امي وشقيقاتي وبنات عمي ، فلا تعدو ان تكون جلسة عائلية أو اخوية » فاستوضحت شـكرية « هل اثق ان هذا كل ما تريده » وعقبت محذرة برأسها وعينيهـا « انا لست من اولئك » فطمأنها جابر ما وسعه الاطمئنان حتى اقسم في اخلاص « بحياة والدي » فأجابت شكرية « صدقتك » ·

أخذ جابر منذ ذلك الحين يهيء ثمن السوار ، كان وزنه مثقالا كما وعد شكرية وثمن هذا المثقال يزيد قليلا عن الدينـارين مع نصف دينار أجرة صياغة السوار · ورغم ان هذه النفقات ستزلزل ميزانيته لعدة اشهر ، وقد تحرمه من بعض وجبات الطعـام والجلوس في المقهى والذهاب الى السينما ، الا ان ذلك كـان مستساغا ومستحبا اذا ما حظي بلقاء شكرية وجلس اليها ساعة من الزمن ·

في أول الشهر تسلّم راتبه من أهله ، فشخص لاحد الصاغة فدفع له دينارا واحدا على ان يجهز السوار خلال اسبوع لا يعدو الخميس القادم ، يوم انصراف الحجية الى بيت ابنتها ، غير ان شكرية صارت تتخلف عن زيارة الحجية متعللة بالمرض وانحراف المزاج • وفي مساء الاربعاء التقى بها •كانت تبدو منهوكة متعبة تتحدث بصوت مخفوض ابح وفي وجنتيها احمرار غير طبيعي ثم ما لبثت ان تشكت الحمى • فبشرها جابر بان السوار سيتم صنعه في الغد ، فتبسمت شكرية • قال « سأنتظرك حتى الساعة الثالثة بعد الظهر » فاجابت شكرية « اما انا فسأذهب صباح الغد الى المستشفى لتسلّم فحص الاشعة وسأعود عند الظهر ، فأوصيك ان تدع الباب مفتوحا كيلا اطرقه فيلمحني أحد الناس وتكون فضيحة • عليك ان تهيىء الشاي اليابس والسكر والنفط » ورفعت في وجهه اصبعا مهددة « اياك ان تنسى شيئا فستكون رب بيت فاشل » فسألها جابر وقد بدا عليه القلق من أجل صحتها « هل انت مريضة الى هذا الحد ؟ »

نكست شكرية رأسها وقالت في وهن « بكل تأكيد لست انا على مايرام ، وقد نصحوني ان أفحص صدري بالاشعّة • وقد فعلت ذلك ، وغدا أتسلّم الفحص » فطمأنها جابر بحماس كبير « شكرية لا تقلقي ، ان احتجت الى علاج سأدفع في سبيل صحتك الغالية كل ما املك وسوف اصطحبك الى الطبيب » فشكرته شكرية وانصرفت •

كان الفرح يغمر قلب الزوجة الشابة المريضة والشاب الجامعي المتوحد في المدينة • ابتاع جابر الشاي اليابس والسكر والنفط وعلبة ثقاب ، وراح يتخيل كيف ستنهمك شكرية في العمل وما يترتب عليه ان يفعل خلال ذلك وبأي حديث سيملأ فراغ الوقت ، وراوده شعور اخر هو ان يستوهبها قبلة • انها لن ترفض من غير ريب • أما هي فكانت فرحتها أن تتسلّم السوار وتزين به معصم ابنتها ، وقد فكرت مليا في نوايا جابر ، انه لم يتبد لها ماكرا مخادعا يستدرجها الى شرك بل لطيفا مؤدبا كثير التحنان عليها ، وان شبابا صغارا لن يطمعوا أكثر من اختلاس قبلة واحدة فيفرحوا بها ويكتفوا وستعرف كيف تمنعه وتصده عنها وتتظاهر بالانزعاج • انه اسلوب

كل امرأة حسنة الظن بالرجل قبل ان تحبه ٠

في صباح الخميس انطلق الى الكلية فحضر محاضرتين فقط ثم عرج على الصائغ فتسلّم السوار ٠ كان بديعا متوهجا بلمعان أصفر يخطف الابصار ٠ راح يتأمله جابر باعجاب ، فخطر له خاطر سخيف وتساءل هل هو هذا الذى يحمى عليه فى نار جهنم فتكوى به الجباه والجنوب والظهور ٠ وابتسم حال ان خطرت له الطفلة شادية ٠ هل ستكون هى ايضا من خازنات الذهب يلقى بها فى نـار جهنم ويكوي جبينها بالسوار ٠ فكر ان يروي هذا الخاطر لشكرية فيجعلها تفرح وتبتهج ٠

فى السـاعة الثانيـة كان فى المنزل ، لقى الحجيـة تتأهب للانصراف ، قـد تأبطت حزمة ملابس عتيقة وارتدت فستانا ملونا بالازهار وعصبت رأسها بمنديل ٠ واخيرا سمع جابر اصطفاق الباب يغلق من ورائها ، فنهض فى الحال وهبط السلم واعاد فتح الباب ثم عاد الى غرفته واستلقى على السرير منصتا لاية حركة تقع فـي الطابق الاسفل ٠ مضت نحو نصف ساعة فأمضه الانتظار ، فتشاغل بترتيب اشياء الغرفة ، فافرغ الشاي اليابس فى علبة من التنـك وسكب النفط في الطباخ ليوفر على شكرية بعض الجهد ، بل ذهب الى اكثر من ذلك ، فتح علبة الكبريت نصف فتحة من الجانب الذى تبدو فيه رؤوس العيدان ، حتى اطمأن الى ان كل شيء قد نال حقـه ومكانه عاد وهبط السلم وتربع فوق البساط كما تفعل الحجيـة معتزما ان يستقبل شكرية عند الباب فيتأبط ذراعها ويصعدان السلم سوية ، واخيرا بان ذيل عباءتها فى فرجة الباب واطلت برأسـها وقالت تعلل تأخرها «حتى الساعة الواحدة وانا أنتظر فى المستشفى، لكم يتفننون فى تعذيب النـاس ، كاد يغمى علي من فرط الحنق وزحمة الناس » حدق اليها جابر بأمعان فهاله شحوبها وانخسـاف خديها ٠ فسعلت وجففت شفتيها بمنديل صغير فانقبضت سـحنة جابر ٠

سألته عن السوار ، فأشار جابر الى السلم فتأبطهافاستسلمت لذراعه استسلام مريض منهوك يحمل الى عيادة طبيب ٠ سألته «هل تقـرأ الفحص ؟ لم يقرأه لى أحد فقد اختطفته من يد الموظف لكيمـا اجعلك تنتظر طويلا » فاخرجت من جيب فستانها ورقة مطوية ناولته

اياها قائلة « هيا اقرأ » ٠

كانا قد بلغا منتصف السلم ، فوقف كلاهما ٠ كانت قد احكمت مسك طفلتها بذراع واحدة واستندت بالاخرى الى كتف جابر ٠ سألها قبل أن يفض الورقة « أي شيء ستعطينني مقابل ان اقرأ لك ؟ أدركت انه يطلب قبلة على السلم ولكن كيف تسمح بالتصاق شفتيه على شفتيها ٠ انها فى هذه الايام مريضة ولم تفعل ذلك مع ابنتها التى يدفعها الحنان كلّ لحظة الى تقبيلها ٠ نكست رأسها وقالت في اباء « كلا لن اسمح لك » فمال الى ذقنها وجذبه اليه فلاح فى عينيها الخوف والفزع ٠ صاحت به محذرة « كلا لا تفعل قد اكون مريضة» فادنى شفتيه الى شفتيها فاندفع من فمها زفير ساخن لفح وجهه وعنقه ، فتمتم « لشد ما هى حارة انفاسك » ففسرت شكرية ذلك « أنا محمومة » ٠

كان الفحص مكتوبا باللغة الانكليزية ، وبمجرد أن حزر جابر معانى ثلاث كلمات فهم المضمون « سل ، رئة ، اصابة خطرة ٠ » فاسترخت ذراعه وتلعثم وهبط السلم ورفع اليها انظاره فيما كانت تحدق اليه فى انشداه ٠

ـ أي شيء كتب فيها ؟ لقد أخفتنى ٠

غمغم جابر ٠

ـ لا شيء انت تعبة يا شكرية ٠ الافضل ان تهبطي السلم واجلب لك السوار بنفسى ٠

هبط السلم حتى توسط ساحة البيت وهبطت هى فى خطوات ثقيلة ، وقد عقد الفزع لسانها ، فهدأ جابر من روعها « سأناولك السوار في الحال » ودلف الى السلم بخفة القط وبرز لها بعد لحظة عند الحاجز ٠ كان قد اخرج منديله وراح يدعك به شفتيه فى قوة٠ صاح من العلية « شكرية خذي السوار ووداعا » فألقى به على الارض فاصطدم بها فى رنة عالية وتدحرج نحو مترين حتى استقر عند قدميها ، فانحنت والتقطته ، واذا ما استقامت ثانية رفعت الى جابر عينين مخضلتين بالدمع ٠ كانت أشبه بالتائبات النادمات اللواتى يركعن تحت الايقونات فى الكنيسة ٠ قالت فى نشيج حزين «تذكر ياجابر انني مانعت فى القبلة » وخرجت الى الطريق دامعة العينين لا تلوي على شيء ٠

رجل من الصرائف

كان الرجل الضئيل يقف على مفترق الطريق الضيق الموحل والمفروش بشتى القاذورات المتعفنة ، قد وضع قدميه الصغيرتين والمحتذيتين حذاء رقيقا باليا فوق قضيب السكة الفولاذى المتين ، وطفق ينظر حواليه بسأم وتعب ونفاذ صبر ، كأنه يترقب خبرا هاما محزنا لايدري من سيأتيه به ، وعلى أي وجه من الفظاعة سيكون ·

لطخات من السحب تنتشر فوق رأسه ، مصطبغة بلون رمادي أدكن ضارب للسواد ، وبقع السماء الصافية راحت تضيق من فرجاتها مقضية على آخر أمل للناس بالصحو والاشراق ·

السماء نفسها لم تتغير ، سيرفع الناس اليها أبصارهم من كل مكان ، من العمارات الشاهقة ومن ابراج موظفي الانواء ومن ثكنات الجند وقلاع الطغاة ، ومن هنا أيضا ، من هذا الدرب العفن الذي يثير الغثيان بقذارته وحقارته ·

وقف الرجل الضئيل صامت اخرس ، يستدل من اختلاجات شفتيه ولمعان عينيه الضيقتين وتنفسه بغير انتظام ، انه مشتبك مع نفسه في هم معذب وقلق مضطرب يقبض على صدره بقوة ، تحت أبطه خشبتان صغيرتان ملفوفة عليهما خرقتان حمراء وخضراء ، لايخطيء الناظر اليه أنه احد عمال السكة يلاحظ مرور القطارات ليزودها بالاشارات اللازمة ويزيح الاطفال عن السكة كلما هم قطار بولوج المحطة · في موضع ما كانت السكة ممدودة فوق حفرة كبيرة ، والقضيبان المتينان مرتكزين لمسافة على دعامتين كونكريتيتين ضخمتين · انتهز الاطفال هذه السانحة فراحوا يتقلبون فوق السكة ويتأرجحون عليها ويتقافزون على خشباتها القوية العريضة والرجل صامت حزين قد أعياه النهر والتحذير طيلة نهاره ، فلم يفتأ ينادي « أيها الاطفال احذروا القطار وابتعدوا عنه ، قد يخرج عليكم في أية لحظة فيجعلكم عجينة من الدم والعظم » على الاطفال جلابيب فقط ، فكلما تأرجحوا ورفعوا سيقانهم انحسرت الجلاليب الى بطونهم وتكشفت أجسادهم النحيلة الطاوية المصبغة بلون السلق ·

على جانب الرجل أربعة توابيت ملقاة فوق الوحل ، اثنان جديدان ، وآخران قديمان مهشمان مصنوعة جميعا من خشب الجام

حتى هذه الاشياء المحزنة المثيرة لم تنج من عبث الصبيان ، كان بعضهم يثب عليها أو يتربع بداخلها مؤرجحا جذعه أو ممدا على قاعدتهما مسبلا يديه متصنعا هيئة الموتى ، الرجل الضئيل مرابط على مقربة من التوابيت من صباحه الى مسائه وقد شهد اكثر من مرة ان بعض الناس يقبلون مولولين وعلى وجوههم آيات الاسى واللوعة يتمتمون بكلام مهموس كأنه الدعاء ، فيختطفون تابوتا ويذهبون به • يختارون دائما تابوتا جديدا قويا ، فيغيب هذا التابوت العزيز عن مكانه بضع ساعات ثم يعيدونه الى مكانه فوق الوحل وعليه نتف صغيرة من القطن •

أقبل القطار يزعق برعب ، يخترق دربا مطينا ، على جانبيه بيوت متأصصة واطئة قد لطخ الوحل أبوابها المقرقعة ونوافذها الصغيرة المزججة بقليل من الزجاج الداخن الاغبر وفي المواضع الخالية من الزجاج برزت الوسائد والخرق والمقوى • راح القطار يتلوى عدة ثوان في حركة حلزونية وصفيره الهادر يرتطم بجدران البيوت فيهزها كما لو ان الارض تندك من تحتها •

نوبة من التفكير العميق قد غمرت الرجل ، وكآبة فاضحة علقت في ثنيات وجهه ، ونظرة سادرة مضببة تنطلق من عينيه الى مكان ناء لا حدود له •

صحا على صفير القطار فطرد هواجسه في الحال مرجفا رأسه الصغير هابا على خرقته الخضراء متعجلا في نشرها امام القطار المتقدم وأصّر صبي شرير أن يظل متأرجحا بالسكة ، فصاح به بصوت مختنق واطيء مفعم بتحذير متوسل « هيا ابتعد سيدوسك القطار » كانت صيحته تعبة موهنة حتى انها لم تخف الصبي ولم ترهبه ، بل مدته بفيض جديد من الشجاعة العابثة • كان القطار قد أطلّ من عطفة الطريق يتأود الى اليمين والى اليسار ، فظل الرجل يغمغم في قلق ، ناقلا نظراته بين الصبي المتأرجح والقطار الزاحف المجتاح « ابتعد من السكة ستموت » كان الاخرون يهزأون ايضا تحلقوا حول رفيقهم مصفقين منشدين ، فمضى القطار شامخا بمدخنته العالية ناثرا دخانه المتفحم هادرا بصفير مرعب •

شرعت قطرات من المطر تنقر وجه الارض الندية ، وزآرت

الريح عاوية مزمجرة فقرقعت مصاريع الابواب والنوافذ وشيئا بعد شيء تكاثفت حبات المطر كما لو أن خزانا هائلا للمياه اســـتحالت جدرانه الى غربال · لملم الرجل معطفه وشده قويا حول بدنه المرتجف مجيلا بعينيه في كل مكان ، متلمسا لنفسه سقفا يلوذ به كمن وقــع في شرك · شخصت ابصاره الى الصرائف النائية حيث تنسدل على طول الفضاء وعرضه ستارة رمادية متذبذبة تنسجها قطرات المطــــر المنهمــــرة ·

كانت الصرائف الحزينة المطأطأة الســقوف راكعة في خضوع تتلقى المطر من غير حول ولا قوة وتبتلع بعضه في جوفها وترســــل البعض الآخر منحدرا الى الحفر الاسنة ·كانت صريفته قائمة بين تلك الصرائف وليس ثمة انسان يستطيع تمييزها عن الاخريات ، ففــي ذات يوم قدم جمهور من المتشردين الى هذا المكان فأوتدوا أخشابهم ونشروا فوقها الحصران البالية ، واقاموا تحتها كالبهائم المطـــرودة المهانة · لم تكن صريفته في متناول بصره ، وهذا ما أكربه وأزعجه ·

بالامس كانت زوجته مريضة قد انتابتها حمى مروعة ، وعند منتصف الليل اعتدل مزاجها قليلا وفتحت عينيها وشرعت تصغي في ذهول الى اخباره واحاديثه · كان يشاع بين سكان الصـــــرائف ان الحكومة قد ازمعت انشاء مساكن لهم ، وذكر ان نحوا من ٣١ الــف انسان يعيشون على شاكلتهم ، وان الدور ستشتمل على غرفتين وحمام وستكون مشيدة بالاسمنت والاجر · وسيكون لهم مستوصف يراجعه طبيب كل يوم ، يعاينهم ويصرف لهم الدواء ، كما ان مدرسة للفتيان ستشيد ايضا ، تضم اطفال الصرائف المشردين · ان حياة جـــديدة زاهية ستشع انوارها · التمع في عينيها سرور باهت لدى هــــذه الاحلام ، سرور مشوب بالكدر والضيق ·

هل انها ستعيش الى ذلك اليوم ؟ كانت تستجلي هذا السؤال في ذهنها · هل ستمتد بها ايام العمر فترى كل هذا · ان احاديث كثيرة تدور على السنة الناس تبشر بعهد جديد · ولكـــن داء عضالا ما برح ينخر في ضلوعها كالسوس ·

يالهي كيف سيكون حالها ؟ تنهد الرجل في ألم مستكينا الى قذائف المطر الهائلة متقبلا كل محنـــه في استسلام ويأس ·· تمتم

« ليأت المطر ويغرقني في بحره اللجى وعساه أن يكتفي بي ٠٠ ولا تنزل سيوله في تلك الصريفة المحتجبة فتهز جوانبها وتصدع سقفها وتبلل المرأة المريضة المستلقية في حنايا فراشها » ٠

كانت تبتسم ليلة امس أبتسامة محسورة وتتطلع الى جوانب الصريفة بعينين حزينتين وديعتين ٠ كان المصباح الكدر يساقط شعاعه على وجهها فتتنهد وتمسّد عنقها بأصابع مرتعشة منحولة ، والرجل نصف النائم المنكمش المضعضع بالسهر ظل يغمغم عند فراشها بكلام كثير لا معنى له ٠

لم يأت انسان قط لاختطاف اى من التوابيت ٠ ظلت متراكمة في مكانها تتلقى سيول المطر بخشبها الندى ومساميرها الصدئة قد تصلبت بداخلها نتف القطن بفعل البلل فغدت ككرات الحالوب البيض ٠

ثمة قطار آخر سيخرج من المحطة ٠ آفاق من تأملاته كمن تلقى صفعة على نقرته ٠ كان المطر قد اخترق معطفه العسكرى ونفذ الى سترته وقميصه وغسل وجهه وسال عليه الماء ، واحس ان تحت قدميه ينبوعا يتدفق بغزارة ٠ تمتم الرجل « ان حالي لتشبه حال الكلاب ٠٠ ان الكلاب نفسها لم تعد تترأى وسط ذلك الهيجان المطري الدافق » ٠

كان أحد جيرانه يتقدم نحوه من مكان بعيد ، غاطسا بقدميه في الاوحال دافعا ببدنه تحت وابل المطر ، متلمسا طريقه الوعر بين الحفر والاثلام ٠

لم يتبين ملامح جاره ، كان المطر يغمره تماما ، الا ان سرعة سيره توحي بشر مستطير ٠ القى نظرة جانبية الىالتوابيت فسرت في بدنه رعدة ، ولسبب ما بدت له هذه الاخشاب مرعبة كآلة الاعدام ٠

تقدم الجار لاهثا متداعيا ، وأسماله العفنة تقطر ماء كثيفا لزجا صاح « عاصى عاصى هيا عجل كلثومة تلفانة » كان عاصى قد نشر خرقته الخضراء وطفق يلوح بها بيده المبلولة وانطباعة قاسية من الاسى علقت بمحياه بأسره ٠ لم يجد أيا من الاطفال ٠ كان المطر قد جرهم الى منازلهم ٠ ارتجت الارض المنقوعة ونفخت الماكنة باحتدام

وانطلق الزفير الاسود المشبع بماء المطر يذوب في الفضاء ·

شق طريقه الى صريفته وسـط الاوحال · وجهه كامد متقلص وعيناه واسعتان حزينتان ، فمرت بخاطره أحاديث الليلة السابقة عن بناء الدور الاجرية والغرفتين والحمام والمستوصـف والطبيـب والمدرسة · استجلى جاره بغتة ·

ـ « كيف حالها ؟ هل انتهى الامر ؟ » أطبق الجار شفتيه وقطب وجهـه ·

كان لاقدامهما الثقيلة على الاوحال صـدى موحش عميـق ، يتمزج مع رنين المطـر المتساقط على البرك الكبيرة فيرقش سطوحها « ايه كلثومة ·· فقدتها » كان يغمغم بهذه الكلمات لنفسـه ليس غير · اذ لم يجد اى منهما متسعا لمزيد من الكلام ·

وفي ظلمة الصريفة الدامسة المغرقة بالعتمة الكئيبة والطافحـة بكل شيء حزين ، لقي زوجته مسجاة في روعة وجلال · قد أغلقت عينيها باباء كأنما تبدي رفضها لاستلام شيء ما ، مستسلمة الى حلم جميل شهي · مكث الى جـوارها مرسلا زفراته في مرارة ، مطلقـا لدموعه العنان ، ضاربا على اضلاع صدره بقوة ، ومن خلال الغشـاء البراق المضبب بدموع عينيه لمح تابوتا جديدا يدخـل الصـريفة ، فأنتفض بدنه وغرق قلبه في بحـر جليدى · كان المطـر يقطـر من التابوت · ولم تكن لعاصى حاجة كبيرة للتمعن في شكله فطالما وجده ملقى على الوحل يقفز فوقه الاطفال ·

في سبيل الافق

قبل نحو عام انتهت محكومية صديقنا حسن • كان قد امضى في السجن اربع سنين بسبب من ارتكابه جريمة قتل ، واظن ان الدخول في تفاصيل الحادث ليس مما يسر ، فقد كان أشبه بظاهرة في غاية الغرابة والشذوذ اذ لم يكن يأمل اى منا ان يقدم رجل مثله اكتسب هذا القدر من الخلق الرفيع والطيبة المتناهية والعلم الغزير على قتل امراة من قريباته اتهمت بسوء السلوك ، غير ان الحادث قد وقع وسجن حسن وهذا كل شيء •

في الليلة الاولى من انعتاقه أقمنا نحن أصدقاءه المقربين حفلة مخمورة ابتهاجا بالمناسبة ، فتحوطنا حوله في حانة فاخرة نتفرسه بعيون مستطلعة • كان هو قد استند الى الجدار وتركنا نحن الاربعة نواجهه من كل اطرافه ، وعبثا حاولنا اكتشاف تغيير في سحنته • كان مثله قبل اربع سنوات • عينان خضراوان راعشتان تخبوان وتلتمعان باستمرار تحوط بهما أجفان مجعدة كثيرا كأجفان العجائز ومحيا قفقاسي أصفر تعلوه وجنتان من صميم بلاد الصين قال •

ـ أمضيت في السجن اربع سنين، وقد اجريت لي فيمستشفى السجن عملية استئصال الكلية ، ولقيت ما لا يقل عن عشرة الآف سجين، وشهدت مرتين عملية اعدام • كان السجن يضطرب في هذه المناسبات وتتضاعف الحراسة وتلغى رخص السجانين وينسب أحدنا لترتيل القرآن عند رأس الحكوم طيلة الليل ، ولكم تمنيت أن يقع على الاختيار غير اني لم اوفق • كان سواي يتقدمنى في كل مرة، وجربت ان اتعلم حرفة كالحلاقة وصناعة الاحذية فلم اوفق ايضا • ان تعلم حرفة في السجن أمر صعب ، فالاسطوات يبخلون بعلمهم خشية المنافسة وضياع الامتياز •

وهكذا جرى الحديث الممتع زهاء ثلاث ساعات حتى شارفنا على الحادية عشرة ، ولا يكاد ضيفنا يفرغ من جواب حتى يسدد اليه أحدنا سؤالا آخر حتى سألناه في آخر الامر •

ـ وانت اى شيء كان يضايقك في السجن ؟

تنهد الرجل واختلجت اجفانه وتعاظمت رعشات عينيه قال بجرس شاك

ـ جدران السجن لشد ما ضايقتني وأكربتني ، انى وجهت باصرتى صدمنى جدار صامت اخرس كجدار الموت الذى يصف اليه المحكومون بالاعدام قبل اطلاق الرصاص عليهم . تصوروا اربع سنين أو عشرا أو عشرين لا تقع عينا انسان على شيء يبعد خمسين ياردة . كل مرئياتى كانت فى هذه الحدود الضيقة .. اواه اواه الفضاء هو ضالة السجين التى يتحسر عليها .

ثم استرسل بنغمة امعن بالشكوى واحفل بالتفجع .

ـ «ترى لو اخرجونا يوما فىالاسبوع تجوب فىالبرارى ونرتاد ضفاف النهر ونستجلي الافق لكم سيكون السجن مستساغا هينا ، ان النفس لتنتعش وتسر .. ولكن الجدران الاربعة هى ناموس السجن الازلى بل هى الكرب العظيم الذى ينشق السجين من ثقله الى نصفين » قلت .

ـ « اذن أنت فى لهفة للتنقيب عن ضالتك الثمينة ؟ ها اتنذا قد نلت الحرية التى حرمت منها كل هذا الزمن الطويل وخرجت الى الدنيا الفسيحة ودانت لك البرارى والضفاف والافاق » فهتف فى مرح .

ـ « هذا ما اريده ياصديقي سانطلق حيث لا يصدمنى جدار ولا يعوقنى حارس ولا بوابة من حديد ، الفضاء كله لي انعم به ما شئت » قلت .

ـ هذا عظيم بيد أنك ستضجر من غير ريب بلا رفيق ولا مونس »

وكنت فى قرارة نفسي اتوق لمصاحبة هذا الرجل القفقاسى المحيا ذي العينين الخضراوين . وقد طرف بعينيه غامزا فيما هو يلقي التماسه .

ـ هل تتفضل وتكون معى ؟ يوما هنا ويوما هناك ، لا ندع أرضا تعتب علينا ولا أفقا ولا ضفة بل سياحة شاملة فى طول المدينة وعرضها » فوعدنه أن أكون معه منذ الغد . وقد بررت بوعدي ، اذ أفتتحنا اولى جولاتنا فى اليوم التالى . عقدنا العزم على القيام برحلة تبدأ من محطة الكاظميةحتى كرادة مريم علىان نسلك رصيف النهر .

التقينا فى نحو الساعة الواحدة بعد الظهر ، كان الجو رائقا والسماء متألقة تحت شمس ساطعة فى غاية البهاء ، والنسيم هفافا

يمسح على وجهينا في رفق · كان يوما ربيعيا حقا من الايام التـــي يكثر حولها الوصف الخلاب ·

سرنا نحو ثلاثة أميال في اتجاه سكة الحديد فوق أرض فسيحة تبعثرت عليها ابراج معامل الطابوق وأبنية صغيرة متباعـدة واكواخ داخنة ، ثم أنعطفنا صوب رصيف النهر مستعرضين الماء والشـــجر وقوارب الصيد وعمال السفن المنهمكين في تشييد هيكل ســـفينة حديدية،ولا نفتا نرنو الىالضفة البعيدة محاولين تعيين الاماكنهناك·

كان الطريق يتمهد تارة ويتوعر اخرى حتـــى بلغنا مبنى كبــيرا شـــامخا قلت لصاحبي ·

ـ هذا زورق عمومي ينقلنا الى الضفة الاخرى ·

فاحتـــج قائـــلا ·

ـ ليس في هذا الجانب ما يمتع النظـــر ، لنتوغل الى مســافة اخرى حتى نبلغ موقع استدارة النهر ·

فاذعنت لمشيئته وتابعنا السير بتراخ ونصب ، فاتسع أمامنـــا تيار النهر وانبسطت صفحة الماء تتألق تحت حواجب الشمس التـي أخذت تطفل منذ فترة يسيرة ، وقد امتد أمامنا الافق حيث تتــــدلى السماء وتشرأب اعناق التلال ويمتزج اللون الازرق باللون الرمادي هتـــف حســـن ·

ـ ها هنا الافق ما أروعه ·

وجعل يتأمله في كثير من المرح والغبطة فقدرت ساعتئذ معنـــى الحرية ومعنى النضال لاجلها ، وأصر صاحبي على عبور النهـــر في اعرض موقع · لم يكن هناك زورق للاجرة انما كان زورق واحــــد يتخذه صاحبه في صيد السمك ، وهو قديم مرقع دانية حوافيه نحو الماء · فرجونا الصياد ان ينقلنا الى الضفة الاخرى فأجاب طلبنا بعد تلكوء ملمحا لنا ان زورقه لا يليق بنا وليس هو مضمونا فلم يبـــال صاحبي · كان مأخوذا بروعة الافق الذي سحره وخلب لبه ، فركبنا الزورق فتمايل هنيهة ، ثم استقام مدفوعا بقوة المجذافين واذ مـــا بلغ بنا منتصف النهر برز لنا مركب بخارى من تلك المراكب الباذخة التي يتخذها الاغنياء للنزهة واقامة المادب · برز مثل نمر مستوحش يرسل زئيرا وعربدة ، فخطر لي في الحال ان اخلع حذائي ، وهـــي

عادة حميدة عند دنو خطر الغرق . اقبلت نحونا موجة قوية لطمت الزورق فى جانبه فتارجح لحظة يسيرة ثم اقبلت موجة اخرى رفعته كالفنجان بين اصابع اليد ونفذت الى جوفه دفقة كبيرة من الماء فانشأ الصياد يزمجر ويرسل الشتائم ثم كانت موجة ثالثة قلبت الزورق والقتنا فى النهر ، فطفت فوق الموج لحظة ثم غطست وارتفعت كرة اخرى وقد أيقنت من هلاكي .

كانت اصوات ثاقبة تتناهى الى اذني أشبه بزعيق حاد ترسله حناجر النسوة المفجوعات اللواتى يودعن ميتهن الوداع الاخير ، واحسست ان يدا فولاذية بالغة القوة تشدنى من شعرى واننى أطفو وأتنفس هواء رطبا ، واذ ما صحوت بعد حين وجدت نفسي ملقى على رصيف النهر وحوالى خلق كثير يتأملوننى باشفاق ، بادرت بالسؤال عن حسن فأشار رجل الى النهر وقال .

ـ انهم هناك مازالوا يفتشون فى غير جدوى .

وبعد يومين اخرجوا حسن من النهر ميتا .

كانت عيناه مغمضتين بشدة ولاشك انهما تحتفظان باخر رؤية للافق الوردى الذى صبغه المغيب بالقرمز .

رجل مضطهد

في المساء بارح السيد حقي مأمور الاستهلاك منزل مدير الناحية وهو على غير مزاجه ، فمنذ أيام ثلاثة صارت الحمى تنتابه ويثقل الصداع رأسه فياوى الى فراشه مع الغروب ·

واذا ما كان على الطريق المغبر المحفور طالعته مساكن الاهلين المشيدة بالطين يتوسطها التنور الداخن والدجاج من حولها يتقافز وينبش في التراب والكلاب الضخمة الكسولة تطرد عن وجهها الذباب وزمر من الفلاحين المرهقين يخترقون الازقة متنكبين محاريثهم ومعاولهم يلوح على وجوههم الكد والتعب · بينما انطلق مع حشود الظلال الكثيفة رجل يحمل سلما ونفطا وحزمة خرق ليمسح فوانيس البلدة ويضيئها · كانت هذه الفوانيس مثبتة على جذوع الاشجار أو جدران البيوت المعوجة المائلة على مسافات متباعدة تتقارب اكثر فأكثر حول بيت المدير وبطانته من الموظفين ·

كان القطار قد وصل وها هو صفيره يخلص الى الاذن من المحطة البعيدة وها هم المسافرون يركبون العربة المقرقعة الدواليب والحوذي الاعور يلوح بسوطه يستحث حصانيه الهزيلين فيستقبلها الاطفال في سرور وغبطة وكأنها قادمة من مكان مجهول غريب ، اذ لم يقدر لمعظمهم ان يركب العربة ويسافر بالقطار ·

زفر حقي في ضجر ·

ــ « هذه اللوحة المسائية الكئيبة ايضا : فلاحون وعربة ومسافرون » لم يعبأ لايما أمر ولم تكن ثمة حاجة ليسأل عن شيء ، فقد قيل له في يومه الاول كل ما يلزم معرفته عن احوال الناحية وشؤونها واثريائها وفقرائها ، مصائبها واحزانها ·

واذ ما جاز عشرات المساكن تبدت البساتين المسورة المحروسة تنعب في جنباتها الغربان وتصدح البلابل وتزقزق العصافير وتنقنق الضفادع ، تمتد عن يمين وشمال الى عدة أميال مثقلة شجراتها بالبرتقال والليمون والرمان والكروم هي كنوز الناحية وثروتها ومصدر تجارتها ، وعند الساقية الوحيدة اجتمعت النسوة لغسل الصحون والخرق بينما يغتسل الاطفال من حولهن ويسكبون المياه على اقدام الدواب المقبلة لتروي عطشها ·

كان منزله يقع فى الطرف الآخر من البلدة وما ان بلغه السيد حقي بعد مسيرة عشر دقائق حتى خلع معطفه وسترته وسرواله واندس فى طيات الفراش لمقاومة البرودة المثلجة فى عظام ظهره وخاصرته ، وشرع يستذكر موضوع العريضة التى اثار المدير حولها النقاش ٠

فمنذ أيام نشرت احدى الصحف عريضة تقدم بها احد أبناء البلدة الى المسؤولين يبسط فيها تأخر الناس الصحى وندرة الادوية وانعدام أسباب الوقاية والتسيب الاداري وطالب في آخر عريضته ان تنشأ فى البلدة دار لتصفية الماء ومولدة للكهرباء بدل الفوانيس الشاحبة التي تطفؤها الريح في ساعات الليل فيسود الازقة الظلام ، وقد دهش حقي ان يكتب أحد أبناء البلدة مثل هذه العريضة ويتقدم بها الى المسؤولين دون ان يتهيب ويأخذه الوجل ٠ وكان المدير مغضبا أشد الغضب وهو لايكاد يمتلك أعصابه من فرط الغيظ ٠ قال فى حدة وهو ينشر أمامه الصحيفة :

ـ انظروا أية وقاحة وافتراء ودسيسة ، وكلكم تعلمون انني أعمل المستحيل فى سبيل تحسين اوضاع الناحية وازدهارها ، أريدكم ان تكذبوا هذه الاتهامات وتنشروا الحقائق أمام الناس قبل ان يصدق المسؤولون وينزلوا بنا العقاب ٠

وانما أغاظ السيد حقي هو تكشف رئيس البلدية عن حقارة متأصلة ، وهو رجل نصف أمي ونصف متمدن متهوس مغرور ورث منصبه عن أبيه وجده ٠

كشر عن أسنانه وفح فى وسط المجلس « هدام من غير ريب سابلغ عنه التحقيقات لينال عقابه » ٠

وقد لاحظ السيد حقي فى كثير من الوضوح ان المدير كان يحث موظفيه أن يكتبوا في مدحه والثناء على ادارته الحكيمة وسعيه الدائم من أجل تجميل الناحية والترفيه عن الاهلين ٠

كان يتمنى ان يخوض معه نقاشا رقيقا هادئا ولكن الحمى اقعدته ولجمت لسانه والصداع ضايقه وأتعبه ، ولذا فقد تسلل مبكرا مخلفا المجلس منبرا للكتبة والمعلمين ليشيدوا بموقف المدير الحازم وأعماله الباهرة ٠

ان الدنيا تتقدم وترتقي وحتى في هذه الناحية المنعزلة الصغيرة الضاربة في مجاهل الامية والفقر ينهض من غبارها وطينها رجـــال صغار يكتبون ويطالبون ويكشفون الاقنعة ويقرعون أبواب المسؤولين الذين لاسمائهم وحدها تحني الجباه ، وان رجلا كالمدير لن يقوى على صد التيار ، فان الطوفان قمين بان يجرفه بعد حين ويلقي به في الهاوية .

له عائلة كبيرة في بغداد تتكون من زوجة وثلاث فتيات في سن الزواج وابن صغير يتلقى علومه في المدرسة المتوسطة تركهم جميعـا وجاء مكرها مقسورا الى هذه الناحية الحزينة المقبضة للروح من غير حول ولا حيلة .. ولكن ما الذي يمكن صنعه تجـــاه الوساطة . زاحمه على منصبه في الوزارة شاب من أســرة ثرية رفيعة يــدرس القانون وتعوزه وظيفة في مكان دراسته فاغتصبوا من السيد حقـي مكتبه والقوا به بعيدا كالنواة التي لا تنفع ..

كل شهر يشد رحاله الى بغداد لرؤية عائلته وتدبير أمـــــور معيشتهم . في الشهر الماضي وفي ذات صباح مطير بارد كان يتجول في السوق بحثا عن معطف مستعمل يدفيء به عظامه ، وبينما كــان في أحدى الدكاكين يجرب معطفا بين يدي البائع ، لاحت في المــرآة التي أمامه فتاة تجتاز السوق كثيرة الشبه بابنته سميرة ان لم تكــن هي ذاتها ، وكان الى جانبها الشاب الذي اغتصب مكتبه في بغـــداد وهما مستغرقان في نجوة مريبة ، فنزع المعطف عن كتفيه في الحال وهم باللحاق بهما ، غير ان السوق كان مكتظا يكتم النفس فلم يعثر لهما على أثر ولم يكن ثمة ما يؤكد انها كانت أبنته نفسها . ولكن هذا الخاطر المقلق لازمه أياما عدة واقض مضجعه ، اذ كيف يمكن ان تنشأ علاقة بين ابنته والرجل الذي جنى عليه كل هذه الجنايـــة ، انه بعيد عن العائلة وبغداد ليست بالمدينة المؤتمنة بعد ان شاع فيها العبث وغصت بطلاب اللهو والمجون .

في الصباح قام الى فطوره فتناول قليلا من الخبز المأدوم بالزبدة واحتسى كوبا كبيرا من الشاي . ثم اتخذ سبيله الى مكتبه .

كان صباحا منورا بشعاع الشمس الدافيء يغمر المزارع الخضراء وقد انطلقت الابقار سارحة في المراعي ، والدواب تتمهل أمـــــام محاريثها والدوارس تئز ، وترتفــع المداري بالايدي ، والاهـــلون

يروحون ويغدون في سيما من الجد والحزم ٠

وفي الازقة برز المعلمون لمدرسة البلدة الابتدائيـــة الوحيدة ، يحثون الخطى بأحذية رثة ثقيلة واطفال الصف الاول يتنادون عـلى قرع الجرس وفي ايديهم كتب الخلدونية ودفتر الحساب ٠ وتقدم من بعيد موكب المدير يختال في ابهة قاصدا ديوان عمله يرمقه الاهلون في تجلة بالغة وكأنه ملك غير متوج ومشى السيد حقي في اعقاب هذه المواكب مطرقا حزينا بادي الهزال والشحوب ، قد تابط ســـدارته السوداء العزيزة والتمعت صلعته بشعرات بيضاء متفرقة متقبـــلا ببساطة نظرات الاهلين اللامبالية وكأنهم يخاطبونه ـ حسنا أيهـــا المأمور ، انك لا تبطش ولا تمنع الرزق عن احد لا تمنح ولا تهـــب ولا يسمع لك صوت فلا بأس أن فرطنا في احترامك ـ ٠

وعند السوق شق طريقه في جهد منتزعا كتفيه من اذرع المارين وصدورهم شأنه في كل صباح حيث يكون غاصـــا بالباعـــة والمشترين والسماسرة والسواق والدواب المحملة وعربات الدفــع ، وقد بدا الناس للسيد حقي وكأنهم يتجهزون لرحيل بعيد يستهلكون فيه الاف الاطنان من السكر والشاي والحنطة ولفات القماش، وانتهى الى الخان الكبير الذي يقع فيه مكتبه في الطابق الثاني ٠ كان خانـــا قذرا تفترش ارضه الفضلات والقشور وتكسو درجاته شتى النفايات وتشد الى مرابطه البغال والحمير وما تفتأ تنهق وتبرز ، وتسرح في جنباته الخراف والماعز ويضطجع في غرفة المشردون والحفـــــاة والشحاذون والغرباء واللصوص فيبصقون ويشخرون ويتبادلـــون الشـــــــتائم ٠

تمتم السيد حقي في غيظ وموجدة « خدمة تنيف على العشرين سنة ثم في هذا الاصطبل الذي تأبى ان تعيش فيه الكلاب ، ولكن ما الذي يمكن صنعه ٠ شاب في مثل عمر ابنائي يزحمني ويدفعني جانبا ويغتصب مكتبي ثم يلاحق أبنتي وينوي معاشرتها وهتكها ، أنـــي لاكره ان استنشق هذا الهواء الموبوء سأذهب الى الوزير وابســـط لـــه شـــــكايتي » ٠

وما أن اقتعد مكتبه حتى تحفز المراجعون للانقضاض عله وســد مكتبه بأجسادهم الضخمة واطلاق الغبار والذباب على رأسه ووجهــه

فراح يعمل عمله الروتيني ، يستلم المرسوم ، ويوقـــع الوصولات ويحشو الدنانير فى الخزانة والطنين الموشوش المتسائل الملحـــاح يثقب اذنيـــه ٠

كان يعمل بسرعة وخفة ليستا من وحي القوة والنشاط بل في شيء من النرفزة والحنق والضجر وكأنه يقول في سره ، انه يومـــي الاخير معكم ، فلاصف كل شيء بضربة واحدة وانهي الحساب كيمـــا اســـتريح في آخر الامر ٠

وعند الظهر خف الزحام عن مكتبه فراجع أوراقه واحتســـب مدخوله ونظم دفاتره وكتبه حتى شارف على نهاية الدوام فقفل راجعا الى بيته موطئا اطيان السوق وقاذوراته ٠ ومع خروجه خرج الموظفون الآخرون من مكاتبهم ٠ المدير اولا يحف به كتبته والمتملقون من وجوه الناحية ثم معاون الشرطة يتأخر عنه قيد خطوتين شرطي باسل ضخم، وبرز موظفو النفوس والصحة والبريد والمعلمون وقد بدأوا جميعـــا للسيد حقي أصحاء موفوري العافية متوردى الوجوه فيما هو وحـــده يشكو الروماتيزم والبرد وسوء الهضم ، وهو وحده غائر الوجنتـــين متساقط الاســـنان يعاني الحمى والصـــداع ٠

فى المساء لم يغادر منزله ويشخص الى بيت مدير الناحية وفى هذا خرق للعادة ومن الامور التى يستلزم لها ايضاحا وطلب المعذرة والا وضع نفسه موضع الملامة ، فاشباع غرور المدير والاشادة بفضـــله وحكمته وحصافته في المناسبات كافة من واجبات الموظفين العاملين في ناحيتـــــه ٠

تمدد في فراشه خائر القوى شاحب الوجه مبهور النفس ٠ قد انفرطت شعرات رأسه وتهاوت على قذاله ، وقد اضاء له خادمه فـــى أول المساء مصباحه النفطي القائم فوق المنضدة واتى له بكوب مـــن الحليب الساخن مع رغيف من الخبز شرع يقضمه في غير اشـــــتهاء ويحســـو الحليب على مهل ٠

انه قد بلغ عامه الخامس والخمسين وان كان في سجلات الدولة لما يزل في عامه الخمسين وان احالته على التقاعد باتت محتملة ، فـــلم يجزعه هذا الخاطر البتة ، لكم يود ان يمضى سنواته الاخيرة فى دعة وراحة ويعيش على هواه ، يضطجع في فراشه حتى الضحى ولا يغادر

بيته في الايام الباردة ويتحرر من قلقه من جراء مسؤوليات الوظيفة واعبائها فيفرغ همته في توجيه بناته وارشادهن فيختار لزواجهن أحسن الاصهار ويجنبهن المزالق والمهالك التي تحفل بها الحياة ، انه فى وظيفته مرتب منظم ليس من ورفة الا لها محفظة ترتد اليها وليس من فلس الا له باب يحتسب عليه ، بينا الحياة شتيت من الفوضى والهرج وهذيان محموم ينعق فيها المجانين والحمقى وطالبو الجاه ·

وعلى حين غرة أنس في نفسه شيئا من القوة والعزم فقام الى ملابسه وارتداها جميعا وصفّ شعرات رأسه وخرج الى الطريق · كانت البرودة شديدة والريح توشوش ، قد اطرح الليل اخيلته والسماء في تمام صحوها والفوانيس تبعث أضواء شاحبة كأنها القناديل فوق الاضرحة · وقليل من المارة يتوجهون نحو المقاهي لاحياء سهراتهم بينما ثغاء الابقار يتردد من المزارع القريبة ، فأحس بالابتراد وكأنه غطس في حوض مثلوج من غير ثياب وليس ثمة دم حار تخلف في عروقه · فعاد القهقرى وهو يعتمد على الجدران ويلتقط أنفاسه ويلهث ، واذ بلغ فراشه اندسّ فيه بكامل ثيابه واستغرق في النوم هي الغيبوبة عينها ·

وفي الصباح افتقد الموظفون السيد حقي اذ لم يحضر مكتبه فاغتاظ المراجعون وليس من يدري ان الموظف الكسول المهمل قد غدا جثة باردة مسجاة في السرير · فشاع الخبر واقبل الموظفون وبعض ابناء الناحية فحملوا الجثمان الصغير البارد ووضعوه في سيارة مكشوفة انطلقت به الى بغداد التي اشتهى أن يكون فيها حيا لا ميتا ·

حلم رجل أعمى

كانت سياسة الميتم الجديدة هي التخلص من بعض العميان اللائذين بأحدى غرفه الواسعة الرطبة الواقعة في الطابق الارضي. كان اولئك العميان ينامون على اسرة خشبية صغيرة مفروشة بأغطية ذات الوان مختلفة هي قطع مخيطة الى بعضها من نماذج الاقمشة التى يهبها الى الميتم كل عام رجل من التجار .

كان وسط الغرفة خاليا ، خلا ثلاث حمالات يستعملها العميان لرفع الكتب المثقوبة بالمخارز . كان بعضهم يقعد الى هذه الحمالات وينشر فوقها أصابعه ليستقرأ بها الثقوب مستغرقا في قراءة سريعة مبهمة .

أما سياسة الميتم الجديدة فقد تبدت للرئيس اشبه بعملية بتر الاجزاء الفاسدة من الجسد الحي . وقد كان بارعا في شن الحملات الكوماندية الخاطفة على اولئك العزل الفاقدين لنعمة النور، يفاجئهم في ساعات الليل والنهار متمحكا بشتى الاعذار لصب ملامته فوق رؤوسهم زاعما أن الصدقات قد شحت وضاق المكان ولم يعد الميتم ملجأ للعجزة والمقطوعين . وطالما انزل بهم عقوبات التأديب وحجز الطعام والضرب بطرف السير الغليظ ، وما فتىء يتهدد ويتوعد بعينين محمرتين حانقتين توقع الرعب في نفس المبصرين حتى قذف ذات يوم بأحدهم الى الطريق وهو فرنسيس .

كان فرنسيس مجهول الاصل لايعرف لنفسه اما ولا ابا . قد اطفأ الرمد عينيه منذ كان طفلا والفى نفسه مشردا في الازقة يتصدق عليه اولو المروءة والرحمة حتى تكفله الميتم منذ عدة سنوات وعاش في أكنافه فذاق طعم الاستقرار ، واذ ما احتواه الشارع احترف في الحال مهنة التسول متخذا مقره في باب الميتم حيث تقع الكنيسة الكبيرة التى يؤمها المؤمنون في الصباح والمساء وتلقى من منبرها الشاهق أعظم المواعظ التى تدعو الى الاخذ بأسباب الرحمة واغاثة الملهوف واكساء العاري واطعام السغبان ، ويردد في جوانبها اسم المسيح آلاف المرات في اليوم الواحد .

كان فرنسيس يظهر في أيام الاحد بثوب أنيق وحذاء مجلو وسترة نظيفة وشعر مرجل فيتلو ادعيته في خشوع يستدر به

الصدقات ، ماذا يده المتعظمة النحيلة بصحن معدني مكافحا أكداس لظلام المحيطة به بارتعاشات موصولة من اجفانه . ولسبب ما كان يترك فمه مفتوحا فيعمل هذا الفم المفتوح على اكساء الوجه كله بمومياثية متخشبة لم يمسسها البلى بعد .

كان التسول مهنة خطرة محذورة ، فثمة حملات بارعة يقوم بها رجال من البلدية يختطفون المتسول من زاوية الشارع ويقذفونه في دار العجزة فيحرمونه لذة التجول واستراوح نسيم الحرية في الطرقات . كان فرنسيس يخشى هذه الحملات ويرتعد منها ، فقد بلغه ان الناس هناك يسامون الذل والهوان ويضطجعون على مساطب من خشب بحشايا وسخة صلبة وينهشهم جيش جرار من الذباب والبعوض ولا يعنى بالمريض وان بلغ شفا الموت .

كانت يومها قد راجت بدعة طريفة مستحبة ، هي احتراف الشبان العميان مهنة العزف على آلة موسيقية في المرقص ، وكانت في الحق بدعة خلابة تفتقت عن اذهان نيرة تحسن وسائل الكفاح لشق الطريق في خضم الحياة الصاخب ، وتشرع ابواب العمل لجمهرة العميان الذين اعدموا الملجأ والنصير .

كان يقال ان الراقصات يشفقن على العازف الاعمى ويداعبنه حانيات ملاطفات ، وأن بعضهن قد يمنحن قبلا ولا يضيرهن اللمس والاحتضان ، وكلما برع العازف في عزفه وانسجم مع الرقصة المشحونة بشتى الاثارات كان ذلك ادعى الى المحبة واشد استدرارا لعطف الراقصة .

هذه الانباء المهيجة اسالت لعاب فرنسيس الرجل الحامل لاسم أحد القديسين المقربين من الكنيسة، فحلقت به الى أجواء وردية حالمة هي أجواء المرأة المتعطرة الشحيمة ، قد عرّت بطنها وهزت ثدييها وجرت وراءها ردفين رشيقين راعشين ليس في الدنيا شيء في مثل جمالهما .

كان فرنسيس يذوب شوقا لهذا المجد العظيم ، ولا يكاد هذا الحلم يبارح خياله ساعة من ساعات الليل والنهار ، الا أنه سبق ان خاب مرتين في حياته ، حين اعتزم أن يتعلم القراءة والكتابة على طريقة بريل ليصيب حرفة قد تكسبه قوت يومه ولكنه لم يتعلم .

كان ذهنه عصيا على فهمها، وحاول كرة اخرى أن يتعلم الفرنسية وهي لغة الرهبان المفضلة، فكان يلتقط الكلمات الطائرة ويحشوها في مخه ولكنها سرعان ماتختلط مع غيرها فتتشوش جميعا وتتكسر في مقاطع ليست هي من اللغة الفرنسية في شيء .

أما اليوم فقد عزم عزما لا نكوص من بعده ان يثقب حظه العاثر بحرفة خالدة نادرة احترفها من قبل عظماء الرجال فاقبلت الجماهير لسماعهم وجابوا أطراف الارض واصابوا الثراء ، الا وهي الموسيقى . وطوال شحاذة مضنية استمرت ستة اشهر في باب الكنيسة وفي زوايا الازقة وفي الحانات والمشارب وترديد مالا حصر له من عبارات المسكنة والتوسل وبسط الكف واحتمال الدفع والانتهار والزجر وتقبل شتائم السكارى ، اجتمع في كيسه اربعة دنانير هي السعر المناسب لابتياع كمان جيد عامر الاوتار والخشب، وقد ابتاع فرنسيس الكمان المطلوب من أحد الباعة زعم له انه من مخلفات موسيقي شهير استعمله فى مفتتح حياته الموسيقية وأوصله الى أرفع درجات المجد وخلد أسمه فى سجل العباقرة، ولكنه لم يشأ ذكر أسمه . كان الكمان عتيقا مهيب الشكل زيتوني اللون ذا رنين ثاقب كالصفير ، محفوظ في صندوق متهريء سيء الاحكام . كان فرنسيس يتأبطه بشدة حاجبا عينيه المغمضتين بنظارات سوداء كما يفعل سواه من العميان المتأنقين وشرع يختلف الى أحد المعلمين ليلقنه بأجر زهيد شيئا من الفن .

كان يتسول سحابة النهار كاشفا عاهته بغير تستر ولا استحياء استدرارا لشفقة المحسنين ، وفي المساء يضع عويناته الداكنة متأبطا كمانه العتيق المخلخل الصندوق ماضيا الى محطة الباص . مضى نحو شهر قبل ان يتيسر لفرنسيس حفظ السلم الموسيقي وحده وضبط مواقع اصابعه فوق الاوتار ، واذ ما انتهى الشهران أحس ان أصابعه غدت اكثر رشاقة واخف مرونة وصار بوسعه أن يخرج بها السلم الموسيقي من غير خطأ ولا بطء ، الا أن مفازة شاسعة لاتزال تنبسط امامه لعزف قطعة موسيقية معقدة مثل رقص الهوائم أو غيرها تمكنه ان يحتل كرسيا في جوقة المرقص فيثير بها الاعجاب ويرضي الراقصة الحسناء التى سوف تتغنج وتنفتل على نغمات كمانه ، ونقول حسناء لان خياله يأبى الا أن يصور له الراقصة جنية لعوبا مذهلة

ليس المطاط في مثل جسدها تميعا وطراوة .

كانت هذه الآلة الثمينة التى يملكها تعرقل خطاه وتملأ نفسه بالقلق والتوجس مخافة أن تنزلق من صندوقها وتتهشم على الارض، أو يطعن بمقدمها صدر انسان أو كتفه فيورثه بعض الالم أو يرتطم معها بجدار صلب فتقع كارثة لا قبل له باحتمالها .

وذات يوم وقع ماكان يحذره ويخافه. كان يقف في محطة السيارات لركوب الباص بالمجان كما هو الحال مع العميان ، وقد تأبط كمانه بيد واحدة واستعان بالاخرى على تثبيت غطائها ، بينا أصابعه العشرة توقع في الهواء ألحانا لا صوت لها يواكبها فرنسيس بصفيره الخافت المهموس . كانت المحطة غاصة بالناس شأنها في الامسيات وكان مطر خفيف يساقط في قطرات ناعمة ، وكلما أقبلت سيارة تطارح الناس على بابها وتطارح فرنسيس بكمانه وعمى عينيه ، ثم سرعان مايخيب ويعود الى مكانه وهو برم ساخط معتزم ان يناضل نضالا أشد ان اقبلت سيارة اخرى ، وهكذا طال مكوثه فى المحطة نحو عشرين دقيقة من غير أن يصيب مقعدا في سيارة وخشى أن يمضي المساء وهو في مكانه من غير درس .

واستمر المطر يتساقط مبللا الارض على نحو خفيف الا أنه يكفي لجرف قدم غير محترسة الخطو وكانت تلك قدم فرنسيس . ان أنسانا ، لطم كمانه حتى جعله ينزلق من الصندوق ويطير في الفضاء فألقى فرنسيس بنفسه وراءه في الآونة التى كانت تستقبل المحطة سيارة مقبلة فكان فرنسيس في الفسحة المكشوفة التي تقف عندها عجلتا السيارة الاماميتان . ان احدى هاتين العجلتين سحقت كمانه حتى تفتت الخشب بصرير زاعق وتقطعت الاوتار شاكية متوجعة ثم أتت العجلة بكامل ثقلها وضخامتها على كف فرنسيس اليابس المتعظم فسحقته هو أيضا عاجنة اللحم والعظم بالدم المسفوح . وعلى ذلك فان فرنسيس لم يعد عازفا على الكمان في جوقة المرقص ولم تمنحه الراقصات أية قبلة ولم تمسه يد ناعمة ولم يصفق له أحد ، بل انه اليوم مجرد متسول بائس مقطوع اليد يخشى رجال البلدية أن يخطفوه من الازقة ويحملوه الى دار العجزة .


سافروا على طائرات
ايروفلوت
من بغداد
الى موسكو
AЭPOФЛOT
موسكو - دمشق - بغداد - موسكو
موسكو - نيقوسيا - بيروت - موسكو
موسكو - طهران - بغداد - موسكو
موسكو - الجزائر - داكار - كوناكري - موسكو
موسكو - القاهرة - موسكو
القاهرة - موسكو - القاهرة
موسكو - انقرة - القاهرة - الخرطوم - دار السلام - موسكو
رحلتين في الاسبوع يومي الخميس و الاحد
مغادرة بغداد في الساعة التاسعة صباحًا
لزيادة المعلومات اتصلوا بتلفون ٨٨٠٠٢ - أو زيارة مقر شركة ايروفلوت
بغداد - شارع السعدون - قرب ساحة النصر - مقابل الباتا

OLMA

Automatic

أولما



ناجي جواد

الوكيل العام – العراق –